لمحات من تاريخ الدولة الأموية

إعداد

صلاح محمد عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

51 ش إبراهيم خليل – المطرية

اسم الكتاب :لمحات من تاريخ الدولة الأموية

المؤلـــف : صلاح محمد عبد الحميد

الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان

تصميم الغلاف: فرى برنت-

رقم الإيداع : 8958

طبعة أولى : 2017

فهرسة أثناء النشر

صلاح محمد عبد الحميد

لمحات من تاريخ الدولة الأموية / صلاح محمد عبد الحميد

القاهرة.– ط1 . مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع . 2017

160ص ؛ 24 سم

تدمك :8-83-6169-977-978

1 – الدولة الأموية (661 – 750م)

العالم العربى – تاريخ – العصر الأموى

أ. العنوان 953.3

آية قرآنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ

وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا "

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة الأموية أو الخِلافَةُ الأُمَوِيَّةُ أو دولة بني أمية 132 - 41) هـ 750 - 662 / م) هي ثاني خلافة في تاريخ الإسلام ، وأكبر دولة في تاريخ الإسلام، وواحدة من أكبر الدُّوِل الحاكمة في التاريخ .كان بنو أمية أولى الأسر المسلمة الحاكمة، إذ حكموا من سنة 41 هـ (662 م) إلى 132 هـ (750 م)، وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق .بلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك، إذ امتدت حدودها من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً، وتمكنت من

فتح إفريقية والمغرب والأندلس وجنوب الغالوالسند وما وراء النهر.

يرجع الأمويون في نسبهم إلى أميَّة بن عبد شمس من قبيلة قريش .وكان لهم دور هام في عهد الجاهلية وخلال العهد الإسلامي. أسلَممعاوية بن أبي سفيان في عهد الرسول محمد، وتأسست الدولة الأموية على يده، وكان قبلاً واليا على الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ثم نشب نزاع بينه وبين علي بن أبي طالب بعد فتنة مقتل عثمان، حتى تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بعد مقتل أبيه، فتأسست الدولة بذلك. أخذ معاوية عن البيزنطيين بعض مظاهر الحكم والإدارة إذ جعل الخلافة وراثيَّة عندما عهد لابنه يزيد بولاية العهد، واتخذ عرشًا وحراسا وأحاط نفسه بأبَّهة الملك، وبنى له مقصورة خاصَّة في المسجد، كما أنشأ ديوان الخاتم ونظام البريد. بعد وفاة يزيد اضطربت الأمور ، فطالب ابن الزبير بالخلافة، ثم تمكن عبد الملك بن مروان بن الحكم من هزمه وقتله في مكة سنة 73 هـ، فاستقرت الدولة مجدداً.

جرت أكبر الفتوحات الأموية في عهد الوليد بن عبد الملك، فاستكمل فتح المغرب، وفتحت الأندلس بكاملها، وفتحت السند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي وبلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم .خلفه سليمان بن عبد الملك الذي توفي مرابطًا في مرج دابق لإدارة حصار القسطنطينية، ثم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي يعد من أفضل الخلفاء الأمويين سيرة. وخلفه بعده ابن عمه يزيد، ثم هشام، الذيفتح في عهده جنوب فرنسا ، وكان عهده طويلاً وكثير الاستقرار. وبعد موته دخلت الدولة في حالة من الاضطراب الشديد، حتى سيطرمروان بن محمد على الخلافة، فأخذ يتنقل بين الأقاليم ويقمع الثورات والاضطرابات، ثم التقى مع العباسيين في معركة الزاب فهزم وقتل، وكانت نهاية الدولة الأموية.

شهد عهد الدولة الأموية ثورات وفتناً كثيرة، وكان منفذوا أغلب هذه الثورات إما الخوارج أو الشيعة. من أبرز تلك الثورات ثورة الحسين بن علي على يزيد بن معاوية، عندما طالب بالخلافة، فالتقت معه جيوش الأمويين في معركة كربلاء التي انتهت بمقتله. وقامت بعدها ثورات شيعية كثيرة للثأر له، منها ثورة التوابين وثورة المختار الثقفي ، ثم هدأوا بعد قمعهما أكثر من نصف قرن حتى ثورة زيد بن علي .كما ثار الخوارج مراراً وتكراراً، ولم يهدؤوا إلا لقرابة عشرين عاماً بين أواسط عهد عبد الملك وبداية عهد يزيد.

حكام الدولة الأموية

الحاكم	فترة الحكم
الخلفاء في دمشق	
معاوية بن أبي سفيان	661 – 680
يزيد بن معاوية	680 – 683
معاوية بن يزيد	683 – 684
مروان بن الحكم	684 – 685
عبد الملك بن مروان	685 – 705
الوليد بن عبد الملك	705 – 715
سليمان بن عبد الملك	715 – 718
عمر بن عبد العزيز	717 – 720
يزيد بن عبد الملك	720 – 724
هشام بن عبد الملك	724 – 743
الوليد بن يزيد	743 – 744
يزيد بن الوليد	744

إبراهيم بن الوليد	744
مروان بن محمد (تولى الحكم في حران بإقليم الجزيرة الفراتية)	744 – 750
أمراء قرطبة	
عبد الرحمن الداخل	756 – 788
هشام بن عبد الرحمن الداخل	788 – 796
الحكم بن هشام	796 – 822
عبد الرحمن بن الحكم	822 – 852
محمد بن عبد الرحمن الأوسط	852 – 886
المنذر بن محمد	886 – 888
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن	888 – 912
عبد الرحمن الناصر لدين الله	912 – 929
الخلفاء في قرطبة	
عبد الرحمن الناصر لدين الله، بصفته خليفة	929 – 961
الحكم المستنصر بالله	961 – 976
هشام المؤيد بالله	976 – 1008

محمد المهدي بالله	1008 – 1009
سليمان المستعين بالله	1009 – 1010
هشام المؤيد بالله، أُعيد تنصيبه	1010 – 1012
سليمان المستعين بالله، أُعيد تنصيبه	1012 – 1017
عبد الرحمن المرتضى	1021 – 1022
عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله	1022 – 1023
محمد المستكفي	1023 – 1024
هشام بن محمد المعتد بالله	1027 – 1031

تأسيس الدولة الأموية

التأسيس وخلافة معاوية

في أواسط عهد الخليفة عثمان بن عفان اشتعلت الفتنة في الدولة الإسلامية، وأخذت بالانتشار شيئاً فشيئاً، ثمَّ أدت في شهر ذي الحجة من عام 35 هـ (يونيو عام 656 م) إلى مقتله.

فتنة مقتل عثمان :

تنة مقتل عثمان أو الفتنة الكبرى وتعرف كذلك بـ الفتنة الأولى، وهي مجموعة من القلاقل والاضطرابات والنزاعات، أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان في سنة 35 هـ، ثم تسببت في حدوث نزاعات وحروب طوال خلافة علي بن أبي طالب.

كانت للفتنة الكبرى أثر كبير، في تحويل المسار في التاريخ الإسلامي، فتسببت بإنشغال المسلمين لأول مرة عن الفتوحات بقتال بعضهم البعض، كما تسببت ببداية النزاع المذهبي بين المسلمين، فبرز الخوارج لأول مرة، كجماعة تطالب بالإصلاح وردع الحاكم الجائر والخروج عليه، كما برزت جماعة السبئية الغلاة، التي اتفقت على تقديم أهل البيت على جميع الناس، وغالت في حبهم، كما كانت من آثار الفتنة مقتل عدد مهول من الصحابة على رأسهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

كما كانت من أبرز تحولات المسار، انتهاء عصر دولة الخلافة الرَّاشدة والخلافة الشوريَّة، وقيام الدولة الأُموية وبروز الخلافة الوراثيَّة.

بداية الفتنة

لم يغير عثمان الولاة الذين عينهم عمر بن الخطاب عند توليه الخلافة؛ وذلك لوصية عمر بأن يبقي على ولاته في مناصبهم لمدة سنة بعد وفاته خشية من تغيير مستعجل يضطرب له أمر المسلمين..

وكان ولاة عمر على الأمصار:

- على فلسطين عبد الرحمن بن علقمة
- على البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي
- على حمص عمير بن سعد
- على دمشق معاوية بن ابي سفيان
- على البصرة أبو موسى الأشعري
- على مصر عمرو بن العاص
- على صنعاء يعلى بن منية
- على الكوفة المغيرة بن شعبة
- على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي
- على الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي

وأغلب هؤلاء الولاة ليسوا من قريش، وليس فيهم أحد من عشيرة عمر. حيث كان عمر يختار ولاته على أساس الكفاءة وكان يراقب عماله في أمور الدين والدنيا ولا يتأخر في عزل من ثبت تقصيره. ثم بعد ذلك قام عثمان بمباشرة سلطته في العزل والتولية. كانت الولايات تختلف فيما بينها من ناحية الأهمية اختلافاً شديداً. فكان لبعضها خطراً سياسياً وإدارياً وعسكرياً. وهي تلك الولايات البعيدة التي حررت من السيطرة الرومية والفارسية وكانت أربعة : الشام ومصر والكوفة والبصرة.

وكانت كل واحدة من هذه الولايات تواجه جبهة مفتوحة نتيجة الفتوحات الإسلامية المستمرة. وتقاد من هذه الولايات جيوش المسلمين المنطلقين إلى التحرير في الجهات الثلاثة. فكان بحر وبلاد الروم في مواجهة الشام، وكان البحر وشمال أفريقية في مواجهة مصر، وكان ما لم يفتح بعد من بلاد فارس أمام الكوفة والبصرة. إذن لا ريب أن تكون هذه الولايات الأربع موطن القوة الإسلامية العسكرية. إضافة لذلك فقد كانت هذه الولايات مصدراً لثراء المسلمين وفيها حضارات مستقرة وأراضي خصبة وكان تأتي منها كل غنائم الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب والشمال.

فنجد أن الخارجين من المدينة كانوا يتوجهون إلى هذه الأقاليم الأربعة. حيث كان الصالحون يلتمسون بها ثواب الآخرة في الجهاد والمشاركة في فتوحات المسلمين وكان المكتسبون يبتغون عرض الدنيا يتقلبون في تلك الأقاليم بين التجارة والزراعة وغير ذلك.

لم يلقِ عثمان أهمية للولايات التي لم يكن لها خطراً سياسياً أو عسكرياً. وأبقى على ولاة عمر في تلك الولايات ولم يغير منهم إلا القليل. إلا أنه سارع في تغيير الولاة في الولايات الخطرة فور انتهاء العام الأول من حكمه. وفيما يلي ذكر مجريات الأحداث في هذه الولايات:

الكوفة

من أوائل التغييرات السياسية التي قام بها عثمان هو عزل المغيرة عن الكوفة وتولية سعد بن أبي وقاص عليها سنة 24 هـ وكان هذا التعيين بسبب وصية سابقة لعمر بن الخطاب. إلا أن إماره سعد على الكوفة لم تستمر طويلاً. حيث اضطر عثمان إلى عزل سعد اضطراراً.

وقد كان سبب عزل سعد هو خلاف حدث بينه وبين عبد الله بن مسعود المسؤول عن بيت المال. حيث اقترض سعد من بيت المال وأعطى به على نفسه صكاً. فطلب منه عبد الله بن مسعود بعد فترة أن يؤدي دينه فرفض سعد ذلك وطلب منه أن ينتظر حتى يتيسر له المال. الأمر الذي رفضه ابن مسعود فنشب شجار بينهم انتهى بوصول الأمر لعثمان الذي سارع بعزل سعد وولى بدلاً منه الوليد بن عقبة سنة 26 هـ.

لم يكن أهل الكوفة يطمئنون للوليد. لأنه كان من المذمومين في عهد رسول الله ونزل ذمه في القرآن. حيث غش الرسول وكذب عليه، وأنزل الله فيه قراناً فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ﴿٦﴾

وكان هذا الفاسق المقصود هو الوليد.

والوليد هو أخ عثمان بن عفان من أمه، وقد تكون هذه القرابة هي التي جعلت الوليد مفضلاً على بقية أعلام المسلمين في إمارة أحد أخطر الأمصار وهي الكوفة. استاء أهل الكوفة من تولية الوليد عليهم فهم لم يكونوا يرون فيه الحاكم الكُفئ ، ولا صاحب الدين المستقيم. حتى صلّى بالناس وهو سكران، فذهب وفد من أهل الكوفة يشهد على الوليد بمعاقرة الخمر وجاؤوا بخاتمه الذي استلوه من يده وهو سكران دليلاً على ذلك. الأمر الذي أثار غضب عثمان وعلي بن أبي طالب وكبار أعيان المدينة فقام بعزل الوليد وأتى به إلى المدينة حيث أقام عليه الحد. ونفذ فيه حكم الجلد الإمام علي.

وما كان من عثمان إلا أن ولى على الكوفة سعيد بن العاص بديلاً عن الوليد سنة 30 هـ. استقبل أهل الكوفة سعيداً بكل رحابة وكانت الأمور تنبئ بخير بما كان من توافق بين الأمير ورعيته. إلا أن هذا الحال التوافقي لم يستمر طويلاً قبل أن يعكره سعيد بن العاص نفسه، ففي عام 33 هـ وفي أحد الليالي عندما كان الأمير جالساً مع كبار أهل الكوفة قال في خضم جدال طويل "إنما السواد بستان لقريش" (يعني ان ارض العراق ملك لقريش) الامر الذي اغضب كبار اهل الكوفة الذين لم يتاخروا بالرد عليه وقالوا : "انما السواد فيء افاءه الله علينا، وما نصيب قريش منه إلا كنصيب غيرها من المسلمين." فغضب صاحب الشرطة لأن القوم ردوا رداً غليظاً على الأمير. فحدث تشاجر واشتباك بالأيدي أدى إلى ضرب صاحب الشرطة واغمائه.

كتب سعيد بن العاص إلى عثمان بما حدث. فأرسل عثمان أمره بإخراج الذين ردوا على الأمير ونفيهم إلى الشام عند معاوية لاستصلاحهم. وبالفعل أبعد هؤلاء القوم عن الكوفة ووصلوا إلى معاوية الذي أحسن معاملتهم. وظل معاوية يدخل عليهم فيناظرهم ويعظهم ويذكرهم في فضل قريش على العرب فلم يقنعوا له، وردوا عليه قائلين بأن الإسلام لا يعرف لقريش فضلاً غير أن النبي بعث منهم. وأن انبعاث النبي من قريش لايبيح لها التحكم في رقاب الناس. كما أن لاحق لقريش بان تمتاز عن بقية العرب فكل الناس في الإسلام سواسية، بل انهم طلبوا منه ان يعتزل الامارة إلى من هو أقدم منه للإسلام عهدا وأكرم منه أبا، وأجدر منه ان يقيم حدود الله

ويظهر أن معاوية قد خاف منهم أن يحرضوا أهل الشام عليه. فكتب إلى عثمان يطلب منه ابعادهم عنه واعادتهم إلى الكوفة. فقبل عثمان بذلك. لم يكادوا يعودون إلى الكوفة حتى اطلقوا لسانهم في سعيد بن العاص وعادت المشحانات بينهم وبينه، فأعاد سعيد الكتابة إلى عثمان يشكو له منهم ويطلب منه ابعادهم عنه. فأمر عثمان بنفيهم مرة أخرى لكن هذه المرة كان النفي إلى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

تلقاهم عبد الرحمن على عكس معاوية. فجعل يسومهم الخسف ويعظم لهم أمر نفسه وأمر أبيه وأمر قريش، لا بالمناظرة والحجج الدينية وإنما بالقول الغليظ والسيرة التي هي أغلظ من القول. وصار لا يركب إلا وجعلهم يمشون خلفه، يؤنبهم ويزجرهم ويذلهم ويجعلهم للناس نكالاً. فعندما زاد في اذيتهم أظهروا له الطاعة والقبول بسيادة قريش وتميزهم على العرب. وأرسلوا إلى عثمان مالك بن الحارث الأشتر يبين له طاعتهم فقبل عثمان ذلك، لكنهم ظلوا مقيمين عند عبد الرحمن لكن اقامتهم لم تطل

حيث قدم سعيد على عثمان في المدينة، فاستغل أهل الكوفة خروج سعيد منها فتجمعوا وأقسموا أن لا يدخلها سعيد مرة أخرى وكتبوا إلى أصحابهم المنفيين عند عبد الرحمن، ففروا من عبد الرحمن واقبلوا مسرعين حتى دخلوا الكوفة. فكتب زعيم المنفيين العائدين إلى الكوفة كتابا إلى عثمان جاء فيه:

»من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره. اما بعد فقد قرانا كتابك؛ فإنه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين، نسمح لك بطاعتنا. وزعمت إنا قد ظلمنا انفسنا، وذلك ظنك الذي أرداك فاراك الجور عدلاً والباطل حقاً. واما محبتنا فان تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا، وتسييرك صلحاءنا، واخراجك ايانا من ديارنا، وتوليتك الأحداث علينا، وأن تولي مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الاشعري وحذيفة، فقد رضيناهما. واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله والسلام«

فقبل عثمان بولاية أبو موسى مضطرا. وكان أبو موسى يمني من اصحاب النبي ولاه عمر البصرة.

مصر

ان عمر قد مات وعلى مصر عمرو بن العاص واليا عليها. فما كاد بعض الوقت من ولاية عثمان ينقضي حتى جعلت قرابة عثمان تنظر إلى أحد أهم أمصار المسلمين نظرة لاتخلو عن الطمع والطموح إليها. وكانت مصر جبهة مفتوحة إلى أفريقية حيث لم يقصر عمرو في غزوها لفتحها والعودة من غزواته محملا بالغنيمة، متوليا مهمة فتح البلدان المجاورة طيلة سنين، إلا أن عثمان سرعان ماقرر كف عمرو بن العاص عن غزو أفريقية، وأرسل جيشاً لا يذعن لسلطان الوالي بمصر وإنما يتصل بالمدينة متخطيا عمرو بالعاص على غير المالوف. حيث ان قادة الأمصار هم من يتولون قيادة الغزوات والفتوحات عادة. وكان المكلف بقيادة هذا الجيش عبد الله بن سعد بن ابي سرح وهو أخ عثمان بالرضاعة. ووعده بأنه لو استطاع فتح أفريقية فله خمس الخمس(4%) من الغنيمة.

ومن الطبيعي ان يغضب عمرو لهذا التهميش. لأن عثمان قد خص به عن نظرائه من العمال. فلم يكن عثمان يرسل الجيوش من قبله مباشرة إلى الثغور. وإنما كان ذلك إلى العمال حيث يغزو معاوية الروم ويغزو عامل البصرة والكوفة فارس.

وقد نجح عبد الله بن أبي سرح في فتح الاراضي الواسعة من أفريقية والمجيء منها بعظيم الغنائم، وماان انتهى من غزوه ولاه عثمان خراج مصر (المسؤلية المالية للبلاد) تاركاً لعمرو بن العاص مسؤليتها العسكرية. وكان لابد من حدوث الإختلاف بين عمرو وعبد الله. فكتب كلاهما إلى عثمان يشكو الاخر، وماكان من عثمان إلى أن عزل عمرو بن العاص عن مصر وسلم عبد الله بن أبي سرح امارة مصر كلها عام 27 هـ

لم يكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح رجل صدق، ولم يكن المسلمين يرضون عنه، فهو كان من الذين اشتدوا على النبي واسرفوا في السخر منه، وقد أرتد بعد إسلامه وأعلن كشفه عن زيف نبوة محمدوأحل الرسول دمه وكاد يقتله عند فتح مكة لولا شفاعة عثمان له واعلان إسلامه. ولايوجد شك في كون سيرة عبد الله في مصر قد اصابت اهلها بالسخط عليه. فكان يكلفهم فوق مايطيقون ويتحملون ويتشدد في.حتى شكوه إلى عثمان. فكتب عثمان له يأمره بالرفق في رعيته فلم يحفل بذلك، وانما عاقب الذين شكوه وضرب منهم رجلاً حتى قتله، وبذلك غضب أهل مصر غضباً عظيماً وغضب معهم أعيان الإسلام في المدينة

الشام

كان معاوية بن ابي سفيان أعظم الولاة حظاً من كل شيء في أيام عثمان. فكان عمر قد ولى معاوية حكم دمشق وولى أخوه يزيد بن ابي سفيان حكم الأردن، وعندما مات يزيد ضم عمر الأردن إلى سلطة معاوية فاتسع بذلك سلطانه. وبعد موت عمر كان معاوية من المقربين لعثمان حيث أن معاوية ابن عم عثمان فلم يقم بتغييره. بل على العكس حيث ضم إلى سلطته الكبيرة فلسطين بعد موت حاكمها عبد الرحمن بن علقمة، وقام بعزل عمير بن سعد الأنصاري حاكم حمص ويضمها إلى معاوية أيضا. وبذلك اجتمعت عند معاوية الأجناد الأربعة وبسط قوته على بلاد الشام كلها ليصبح ذا سلطة عالية لا ينافسه فيها أحد.

وقد طال حكم معاوية للشام، فأحبه أهل الشام وأصبح لطول ولايته وحسن تدبيره لأمور رعيته أشبه بالملك منه بالوالي. وكان عثمان إذا ما أراد أن يسير أحد من المخالفين له والمعارضين لسياسته فإنه كان يرسلهم إلى الشام عند معاوية، فقد كان حزم معاوية هو الملجأ الذي كان عثمان يلجأ إليه إذا أراد تأديب المعارضين له.

ويبدو أن معاوية كان حازماً حتى على عثمان نفسه. فهو كان يلتقي المنفيين الذين يرسلون إليهم لإصلاحهم، فاذا لم يقدر عليهم طلب من عثمان ان يخرجهم من عنده ولم يكن عثمان يرد له طلب.

البصرة

كان أبو موسى الاشعري عامل عمر على البصرة. وابقاه عثمان على حكمه اعواما. والكثرة من اهل البصرة مضرية، وفيهم ربيعيون وفيهم قلة من اليمانية. ولامر ماأحب عمر ان يولي رجلا من اليمن على البصرة، وكثرة اهلها مضرية، وان يولي رجلا ثقفيا وهو المغيرة بن شعبة الكوفة وكثرة اهلها يمانية؛ يريد بذلك في أكبر الظن ان يقاوم العصبية القبلية حتى يزيلها.

كان أبو موسى رجلا من أصحاب النبي مقدماً فيهم، وقد استقامت أمور البصرة في عهده اعواما، لم يشتك فيها اهل البصرة من اميرهم ولم يشكوا الأمير من رعيته. ولكن يبدو أن العصبية القبلية (والقرشية بالاخص) قد عادت في زمن عثمان. فقد كانت ثلاثة من الولايات الاربعة الكبرى يليها أمراء من قريش اقرباء لعثمان: الوليد بن عقبة في الكوفة وبعده سعيد، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام، وعمرو بن العاص في مصر وبعده عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

فلم يبق إلا ولاية واحدة من هذه الولايات الكبرى لم يل أمره أموي ولا قرشي وإنما وليه رجل من أهل اليمن، فكان مركز أبو موسى بين هؤلاء الولاة غريبا شاذا، حيث أنه اليمني الوحيد الذي يلي ولاية ذات خطر. حتى جاء في أحد الايام رجلا مضريا من بني ضبة، هو غيلان بن خرشة الضبي فقال لعثمان: "اما لكم صغير فتستشبوه فتولوه البصرة؟ حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة؟" ويبدو أن غيلان لم يكن وحده بل كان معه مجموعة من اهل البصرة اشتكوا أيضا على أبو موسى .فسارع عثمان في عزل أبو موسى وتوليه ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز عام 29 هـ، فدخل البصرة واليا عليها وهو ابن الخمس وعشرين عاماً .

السياسة المالية

كانت السياسة المالية لعثمان من أكثر الأمور التي أثارت الرأي العام

1- إن عثمان كان ذا ثروة عظيمة وكان وصولا للرحم .يصلهم بصلات وفيرة، فنقم عليه أولئك الأشرار وقالوا بأنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي لهم فإنه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرعية من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا .

وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض من يعطي، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب .فهذه النصوص وغيرها مما اشتهر عنه وما صح من الأحاديث في فضائله الجمة، تدل على أن كل ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال وإنفاق أكثره على نفسه وأقاربه وقصوره في حكايات بدون زمام ولا خطام يطول ذكرها مفترى عليه، مع براءة عثمان مما نسب إليه، قال تقي الدين بن تيمية: إن سهم ذوي القربى ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لقرابة الإمام

كما قال الحسن وأبو ثور، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعطي أقاربه بحكم الولاية فذوو القربى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ذوو قرباه، وبعد موته هم ذوو قربى من يتولى الأمر بعده؛ وذلك لأن نصر ولي الأمر والذب عنه متعين، وأقاربه ينصرونه ويذبون عنه ما لا يفعله غيرهم. وقال: وبالجملة، فعامة من تولى الأمر بعد عمر كان يخص بعض أقاربه إما بالولاية أو بمال وقال: إن ما فعله عثمان في المال له ثلاثة مآخذ: أحدها: أنه عامل عليه والعامل يستحق مع الغنى، والثاني: أن ذوي القربى هم ذوو قربى الإمام، والثالث: أن قرابة عثمان كانوا قبيلة كبيرة كثيرة ليسوا مثل قبيلة أبي بكر وعمر، فكان يحتاج إلى إعطائهم وولايتهم أكثر من حاجة أبي بكر وعمر إلى تولية أقاربهما وإعطائهم.. وهذا مما نقل عن عثمان بن عفان الاحتجاج به .

2- جاء في تاريخ الطبري أن عثمان لما أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له: إن فتح الله عليك بإفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا، فخرج بجيشه، حتى قطعوا أرض مصر وأوغلوا في أرض إفريقية وفتحوها وسهلها وجبالها، وقسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليهم وأخذ خمس الخمس، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وثيمة النضري، فشكى وفد ممن كان معه إلى عثمان ما أخذه عبد الله، فقال لهم عثمان: إنما أمرت له بذلك، فإن سخطتم فهو رد. قالوا: إنا نسخطه، فأمر عثمان عبد الله أن يرده فرده .وقد ثبت في السنة تنفيل أهل الغناء والبأس في الجهاد .

3- وكان قد بقى من الأخماس والحيوان -في فتح أفريقية- ما يشق حمله إلى المدينة، فاشتراه مروان بمائة ألف درهم، ونقد أكثرها وبقيت منه بقية، وسبق إلى عثمان مبشرا بالفتح، وكانت قلوب المسلمين في غاية القلق خائفة من أن يصيب المسلمين نكبة من أمر أفريقية، فوهب له عثمان ما بقي جزاء بشارته. وللإمام أن يعطي البشير ما يراه لائقا بتعبه وخطر بشارته، هذا هو الثابت في عطية عثمان لمروان، وما ذكروه من إعطائه خمس أفريقية فكذب .لقد كان عثمان شديد الحب لأقاربه، ولكن ذلك لم يمل به إلى غشيان محرم أو إساءة السيرة والسياسة في أمور المال أو غيرها، وإنما دست في كتب التاريخ أكاذيب باطلة كان خلفها الدعاية السبئية والشيعية الرافضية ضد عثمان.

إن سيرة عثمان في أقاربه تمثل جانبا من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة لقوله تعالى: "ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ" [الشورى: 23]، وقوله جل ثناؤه: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" [الإسراء: 26] كما أنها تمثل جانبا عمليا من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فقد رأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم غيره من منتقديه، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة الناس، وكان مما رأى شدة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أقاربه وبره لهم وإحسانه إليهم، وقد أعطى عمه العباس ما لم يعط أحدا عندما ورد عليه مال البحرين .وولى عليا وهو ابن عمه وصهره، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم القدوة.

يقول ابن كثير» :وقد كان عثمان كريم الأخلاق ذا حياء كثير، وكرم غزير، يؤثر أهله وأقاربه في الله تأليفا لقلوبهم من متاع الدنيا الفاني، لعله يرغبهم في إيثار ما يبقى على ما يفنى، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي أقواما ويدع آخرين إلى ما جعل في قلوبهم من الهدى والإيمان، وقد تعنت عليه بسبب هذه الخصلة أقوام، كما تعنت بعض الخوارج على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإيثار فعن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما– قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنيمة بالجعرانة. إذ قال له رجل: اعدل، فقال: «شقيت إن لم أعدل .« ويحتج عثمان لبره أهل بيته وقرابته مخاطبا مجلس الشورى بقوله: أنا أخبركم عني وعما وليت، إن صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما سبيل احتسابا، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه"

وقد رد ابن تيمية على من اتهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال» :وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتى أنه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوجهم بناته أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار (مليون دينار)، فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟!! نعم كان يعطي أقاربه ويعطي غير أقاربه أيضا، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأما هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانيا: هذا من الكذب البين، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحدا ما يقارب هذا المبلغ".

عبد الله بن سبأ

يعتقد أهل السنة أن سبب بداية القلاقل والسخط على حكم عثمان بسبب شخص يدعى عبد الله بن سبأ . ويعرفه أهل السنة على أنه من يهود صنعاء ومعروف بابن السوداء، أظهر الإسلام ووقف موقف العلماء، حاول التأثير في الأعراب والأمصار والذين دانوا حديثاً بالإسلام.[34] جعل يطعن في الخليفة عثمان ويقول أنه عين الولاة لقرابتهم به، وأنه حرق المصاحف بعد أن صار لعبدالله بن سبأ أتباع. ووصل الأمر إلى الخليفة فجمع أمراء الأمصار في موسم الحج سنة 34 هـ وقد رأى عثمان أن يلين لهم ويؤلف قلوبهم.

في ذي الحجة من عام 35 هـ جمع المتمردون أنفسهم من البصرة، والكوفة، ومصر، وبدءوا في التوجه ناحية المدينة المنورة؛ لمطالبة عثمان بالرجوع عن موقفه وعزل بعض الأمراء الفاسدين من بني أمية، وطلبوا مناظرة عثمان رضي الله عنه في ما وصلوا إليه من مطاعن في حقه وأظهروا أنهم أتوا للحج.

وقد قسموا أنفسهم مجموعات:

- مجموعة أهل مصر وعليهم الغافقي بن حرب وعبد الله بن سبأ.
- مجموعة أهل الكوفة وعليهم عمرو بن الأصم وزيد بن صولجان العبدي.
- مجموعة أهل البصرة وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدي.

وواجهوا عثمان إلا أنه قابلهم بالحجج وأوضح لهم موقفه فلم يقتنعوا وتظاهروا بالطاعة والرجوع إلى بلادهم.

معارضين

أبو ذر الغفاري

وكان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من أكبر المعارضيين للسياسة المالية فكان يرى عطايا عثمان لمروان بن الحكم واخاه حارث فينكر ذلك ويستنكره، وكان يتلو قول الله عز وجل: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم" وقد شكا مروان بن الحكم إلى عثمان من قول أبو ذر، فارسل عثمان اليه من ينهاه فقال أبو ذر:"أينهاني عثمان عن قراءه كتاب الله؟" ولم يتوقف أبو ذر حتى الح في نقده واستنكاره لهذه السياسات حتى امره عثمان بالخروج من المدينة والذهاب إلى معاوية في الشام.

وعند وصوله الشام صار ينتقد معاوية اشد الانتقاد لجمعه المال وبناء القصور الفارهة فانتقده بشكل كبير لبناء قصر الخضراء وقال:"ان كنت بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، وان كنت بنيتها من مالك فهذا اسراف" وكان يقول: "ويل للاغنياء من الفقراء" حتى أصبح الناس يسمعون له ويتجمعون حوله، فخاف معاوية من أن ينقلب اهل الشام عليه فكتب إلى عثمان يشكو له أبو ذر، فامر عثمان بان يجلبوا له أبو ذر إلى المدينة، فلما بلغ المدينة أصبح يقول" وبشر الاغنياء بمكاو من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. وحتى أصبح يطعن بعثمان حتى ضاق به عثمان فنفاه خارج المدينة إلىالربذة فمات هناك غريبا وحيدا حتى عجزت زوجته عن دفنه لولا مرور حجاج من اهل العراق بالصدفة.

عمار بن ياسر

اشترك عمار مع جماعة من أصحاب النبي في كتابة كتاب يلومون فيه عثمان، وكان عمار هو من تجرا على حمله والذهاب به إلى عثمان. فقرا عثمان جزءا منه، فشتم عمار وامر به فضربوه حتى اصيب بفتق وكان شيخا كبيرا . وعندما مات أبو ذر منفيا في الصحراء حزن عليه عمار وأصبح يلوم عثمان، فغضب عثمان وامر بنفيه إلى الربذة كما نفي أبو ذر. فغضب لذلك علي بن أبي طالب فاقبل على عثمان ولامه بنفي أبو ذر وطلب منه ان يترك عمار ويتراجع عن قراره. حتى تشاجرا وكاد ينفيه هو أيضا قائلا له :ماانت بأفضل من عمار وماانت اقل استحقاق للنفي منه" وبعد وساطة المهاجرين ووجهاء المدينة تراجع عن قرار النفي بخصوص عمار وعلي.

لكن تلك الحادثة أنكرها العديد من الفقهاء: فمن حيث سند الرواية، الحديث الذي يستند عليه في تلك الرواية مروي عن سالم بن أبي الجعد وهو ضعيف السند . أيضاً، الأعمش عداده في صغار التابعين، لم يدرك عثمان ولا عليا ولا عمارا؛وقد وضح ذلك ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد .

طلحة بن عبيد الله

كان طلحة أحد اغنياء المدينة ومن أكبر اعلامها. اختاره عمر ليكون أحد اعضاء المجلس الذي اختاره لينصب الخليفة من بعده. الا انه لم يشارك في اختيار الخليفة، حيث كان مسافرا خارج المدينة عندما توفي عمر فارسلوا له يستعجلوه فاقبل إلى المدينة مسرعا ولكن كانت بيعة عثمان قد تمت. وقد اغضبه ذلك فجلس في داره ولم يبايع عثمان.

الا أن مساعي عبد الرحمن بن عوف وعثمان نفسه قد انتهت بقبول طلحة ومبايعته لعثمان بالخلافة. وكانت هناك علاقات تجارية تربط الطرفين لذا فان الامور استقامت بينهما سريعا. ولكن عندما بدات المعارضة بالاشتداد كان طلحة من المسرعين إليها، ومن المنتقدين لسياسة الحكومة فلما اشتدت الامور على عثمان كان طلحة أحد المشاركين في حصار بيته.

مقتل عثمان

وكانت المعارضة تشتد في الولايات وتصل اصداؤها إلى المدينة، وتشتد في المدينة فيصل اصداؤها إلى الولايات البعيدة فتزداد جرأة، حتى كتب اصحاب الرسول المقيمين في المدينة إلى اصحابهم خارج المدينة بالقدوم إليها لتصحيح ماعوج من امور الخلافة. فتكاثر الناس واجتمعوا في المدينة سنة 34 هـ، ولاموا عثمان على سياسته ثم كلفوا الإمام علي بن أبي طالب ان يدخل على عثمان فيكلمهفدخل عليه وقال له بعد أن مدحه كلاما منه: "تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هدي وهدى،

فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة، فوالله إنَّ كُلّاً لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله امام جائر، ضلَّ وضلَّ به فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعةً متروكة."

خطب بعد هذه المقابلة عثمان في الناس ينذرهم ويحذرهم ثم ذهب إلى بعض من اللين ولكنه بقى على موقفه ورغم ان علي ابن ابي طالب لم يكن راضيا على ما كان يفعله عثمان الا انه وضع في ذلك اليوم ولديه الحسن والحسين امام بيت عثمان ليقومو بحمايته. أرسل بعدها عثمان يطلب قدوم معاوية وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص إلى المدينة للاجتماع بهم.

فاستشارهم عثمان عند قدومهم في كيفية التعامل مع المعارضة فاشار له معاوية بان يترك التعامل مع المعارضة على عاتق العمال (حكام الأقاليم) واشار له سعيد بقتل قادة المعارضة واشار له عبد الله بن أبي سرح بان يرشوهم من المال ليسكتوا، واشار اليه عبد الله بن عامر ان يشغل المسلمين في الحرب والفتوحات الإسلامية. فعمل عثمان براي عبد الله بن عامر.

وماان دخل عام 35 هـ ثار اهل الكوفة على حاكمهم سعيد (كما ذكرنا) وطلبوا ان يولى عليهم أبو موسى الاشعري. وظهر للناس بان الثورة هي الطريق الوحيد لتنفيذ مطالبهم.

ولم يكن للمصريين حل سوى ان يرسلوا وفدا إلى المدينة يطلبون فيه من عثمان كف عماله عن التسلط على رقاب المسلمين ومقدارتهم. فخرجوا ب 35 وفدا ضخما في رجب من عام 35 ه يظهرون انهم يريدون العمرة. فارسل لهم عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار على راسهم علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري ليلتقوا بهم في قرية خارج المدينة. فخرج لهم علي ومن معه فوعدهم على لسان عثمان ان ينفذ مطالبهم، وقدم وفد منهم إلى عثمان في داخل المدينة فخطب بهم واثنى عليهم واعطى التوبة واستغفر الله، وبكى وبكى الناس ورضوا بما قطعه عثمان على نفسه من عهود. وغادر وفد المصريين المدينة عائدين إلى ديارهم.

وماان عادت وفود المصريين إلى مصر حتى تلقاهم عبد الله بن أبي سرح بعد أن عرف بامرهم، فضرب رجلا منهم فقتله (كما أقدمنا (ومرت الايام بدون أن يعزل عبد الله بن أبي سرح فتواعد المصريين مع اهل الكوفة والبصرة للقدوم إلى المدينة بعد أن استياسوا من وفاء الخليفة بعهوده. فتحركوا في شوال من نفس السنة صوب المدينة. وماان وصلت وفود المعارضين إلى ضواحي المدينة، طلب عثمان من علي ان يخرج لهم فابى، وابى كذلك محمد بن مسلمة وقال: لا اكذب الله في السنة مرتين.

وانتهى الأمر بعزل ابن أبي سرح، وتولية محمد بن أبي بكر، فأرسله إلى مصر، ومعه جمع من الصحابة، وعندما كان محمد بن أبي بكر ومن معه في الطريق إلى مصر. فازعجهم رجل يركب بعيرا فاوقفوه بعد أن شكوا فيه، وظهر انه مبعوث من عثمان إلى والي مصر ويحمل معه كتابا له، ففتحوا الكتاب المختوم وفي الكتاب امرا من الخليفة إلى عبد الله بن أبي سرح يدعوه فيه إلى قتل المعارضين الذين قدموا إلى المدينة، وقيل ان حامل الرسالة هذه هو أبو الاعور السلمي.

فارسل المصريين إلى اهل العراق الذين تفرقوا عنهم يرجعوهم إلى المدينة ودخلوا المدينة بسرعة حتى فاجئوا من فيها، فذهبوا إلى عثمان وقالوا له: هل هذا غلامك (يقصدون حامل الكتاب)؟ فقال: نعم انه غلامي انطلق بغير علمي. قا لوا: هل هذا جملك؟ قال: أخذه من الدار بغير أمري. قالوا: هل هذا خاتمك؟ فقال: نقش عليه. فقالوا له ان لم تكتب أنت الكتاب فسلمنا من كتبه.

وهنا ارتفعت مطالب المعارضين الذين تحولوا إلى ثوار فطالبوا بان يعزل عثمان نفسه وان يولي كبار صحابة المسلمين خليفة جديد بدلا عنه. فرفض عثمان ذلك، وماكان من الثوار الا الاعتصام في المدينة حتى تنفذ مطالبهم، وكانوا خلال ذلك لايضايقون عثمان وكانوا يصلون وراءه.

حتى كتب عثمان إلى عماله كتابا يدعوهم فيه إلى إرسال مقاتلين حتى ينصروه على الثوار، فعلم الثوار بامر الكتاب فيبدا الحصار وتتغير معه سيرتهم مع عثمان. فخرج عثمان على المنبر يلعن الثوار فتشاجر القوم بالايدي حتى ضرب عثمان فسقط مغشيا عليه وحمل إلى بيته، وضرب الثوار حصارا على بيته ومنعوه من الخروج منه.

ثم اخذت الامور تصل إلى حدتها بالتازم عندما قُتل أحد الثوار وهو "نيار بن عياض الاسلمي" عندما رمي أحد المحاصرين في دار عثمان سهما نحوه. فقالوا لعثمان عند ذلك: إدفع إلينا قاتل نيار بن عياض فلنقتله به، فقال: لم أكن لأقتل رجلا نصرني وأنتم تريدون قتلي حتى بلغ الامر ذروته فاقتحم الثائرون الدار وتشابكوا مع اهله فاصابوا عبد الله بن الزبير بجراحات كثيرة وصرع مروان بن الحكم حتى اعتقدوا انه مات ودخلوا إلى عثمان فقتلوه. في يوم الجمعة 18 من ذى الحجة سنة 35 هـ، ودفن بالبقيع.

الفتنة الكبرى

بويع علي بن أبي طالب للخلافة بالمدينة المنورة في اليوم التالي لمقتل عثمان فبايعه أغلب من كان في المدينة من الصحابة والتابعين. يروى إنه كان كارها للخلافة في البداية واقترح أن يكون وزيرا أو مستشارا إلا أن بعض الصحابة حاولوا إقناعه. انتقل على إلى الكوفة ونقل عاصمة الخلافة إلى هناك.

رأى علي تأجيل تنفيذ القصاص حتى تستقر الأمور في المدينة، وكان كثير من الصحابة مع علي في رأيه، ولكن كان هناك مجموعتان يرون رأيا مخالفًا؛ فكانوا يرون وجوب القصاص الفوري من قتلة عثمان،

الفريق الأول :يضم السيدة عائشة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام

الفريق الثاني : يضم معاوية بن أبي سفيان والي الشام من قِبَل عثمان، والذي يعتبر نفسه ولي دمه؛ لأنه من بني أمية مثله.

موقعة الجمل وموقعة صفين

في شهر جمادى الآخرة سنة 36 هـ خرج الفريق الذي يضم عائشة والزبير وطلحة إلى البصرة، فقرَّر علي بدلاً من المسير إلى أهل الشام أن يتجه إلى البصرة ليردهم إلى المدينة، ولكنَّ الحسن بن علي.

لاحت بشائر الصلح، وذَكَر الزبير بقول النبي صلى الله عليه وسلم : [لتقاتلنه، وأنت ظالم له..] وتذكر الزبير ذلك وأراد الصلح فلما علم المتأمرون ببوادر الصلح قاموا بالاختلاط بين الناس في المعسكرين، ويهيجوا الناس على القتال قبل أن يصطلحوا.

التحم الجيشان، واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة.

انتهى القتال وانتهت الفتنة جزئياً وبقت مشكلة معاوية.

معركة صفين

في محرم سنة 37 هـ أراد علي أن يعزل معاوية من على الشام فخرج إليه بجيشه وبعث إلى معاوية يبين حجته إلا أن هذا لم يجد، فدار القتال عند صفين، وقتل عمار بن ياسر على يد جيش معاوية وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم" : ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، وذاك دأب الأشقياء الفجار"، وكاد معاوية أن يهزم فرفع جيشه المصاحف وطلب التحكيم. شعر علي أنها خديعة إلا أن الصحابة أصروا على قبول التحكيم فقبل به.

التحكيم

اجتمع الحكمان في دومة الجندل، كان عمرو بن العاص المفاوض من قبل جيش معاوية بن أبي سفيان، وكان أبو موسى الأشعري المفاوض من قبل جيش علي بن أبي طالب .فكتبت صحيفة التحكيم وتوقف القتال وأذن على بالرحيل إلى الكوفة، وتحرك معاوية بجيشه نحو الشام.

ظهور الخوارج

انشق مجموعة من جيش علي (12000) يرفضون التحكيم من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، وكفروا علياً. ناظرهم على وفقهاء الصحابة لكنهم لم يسمعوا لأحد.

في سنة 38 هـ اجتمع الخوارج في مكان يسمى النهروان، قاتلهم على بعد ما فشلت معهم الحجة فقتل منهم الكثير وفر منه طائفة وانقسموا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

في سنة 40 هـ رصد الخوارج ث لاثة منهم ليقتلوا معاوية وعلياً وعمرو بن العاص بيد أنهم لم ينجحوا إلا في مقتل الخليفة علي.

مقتل الخليفة

في 16 رمضان سنة 40 هـ تربص اثنان من الخوارج بعلي عند خروجه كعادته ليوقظ الناس قبيل صلاة الفجر للصلاة، فقتلوه وهو يصلي بالمحراب فصاح قائلاً: "فزت ورب الكعبة."

ولكن الفتنة لم تنته بذلك، فجاء عهد علي بن أبي طالب مليئاً بالقلاقل والنزاعات التي فشل في إنهاء معظمها .وفي النهاية اتفق في شهر رمضان من عام 40 هـ (ديسمبر عام 660 م (ثلاثة من الخوارج - هم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر التميمي السعدي – على أن يقتل الأول منهم علياً بن أبي طالب والثاني معاوية بن أبي سفيان - والي الشام آنذاك – والثالث عمرو بن العاص - والي مصر آنذاك – معاً في نفس الليلة، فنجح الأول في مهمته، وأما الاثنان الآخران ففشلا وقتلا .كان معاوية والياً على الشام منذ سنة 18 هـ بعد أن عيَّنه كذلك عمر بن الخطاب، وعلى الرُّغم من حصول بعض الخلافات بينه وبين علي وخوضه معركة صفين معه، فقد أصرَّ على عدم ترك ولايته، وظلَّ والي الشام حتى مقتل علي .

بعد مقتل علي مباشرة بايع أهل العراق ابنه الحسن على الخلافة، فيما بايع أهل الشام بدورهم معاوية بن أبي سفيان. وهنا حشد معاوية جيوشه وسار إلى الحسن، غير أن الحسن رفض القتال، وراسل معاوية للصُّلح، فسر هذا سروراً كبيراً بالعرض ووافق عليه، وعقد الصلح في شهر ربيع الثاني سنة 41 هـ (أغسطس سنة 661 م)، وهكذا تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وسمي ذلك العام بعام الجماعة لأن المسلمين اتفقوا فيه على خليفة لهم بعد خلاف طويل دام سنوات .

كانت حركة الفتوحات الإسلامية قد توقّفت تماماً منذ اشتعال فتنة مقتل عثمان سنة 35 هـ، وظلّت متوقفة طوال عهد علي بن أبي طالب، حيث كانت الدولة منشغلة بنزاعاتها الداخلية. لكن بعد الاجتماع مجدداً على خلافة معاوية عادت الفتوحات من جديد، وقد ركّزت الفتوحات في عهده على الحرب مع البيزنطيين) في شمال أفريقيا والجبهات البحرية) وفتوحات المشرق (في سجستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر).

توقّفت الفتوحات في أرض الأناضول منذ فترة طويلة قبل حكم معاوية عند سفوح جبال طوروس قرب مدينة مرسين ، وهناك أقام كل من المسلمين والروم على جانبي الحدود حصوناً وقلاعاً كثيرة، وعلى الرُّغم من الغزوات الكثيرة التي شنّها المسلمون في عهد معاوية (خصوصاً الصوائف والشواتي) فلم تتغير حدود الدولتين كثيراً . لكن من أبرز أحداث عهده تمكّن المسلمين من استعادة أرمينيا) والتي كانوا قد فتحوها سابقاً، لكنهم خسروها في أيام الفتنة)، بالإضافة إلى أن بعض غزوات الصوائف والشواتي التي تمكّنت من التوغل في الأناضول حتى عمورية) وهي قريبة من مدينة أنقرة).

كما أرسل معاوية سنة 49 هـ) وقيل أيضاً سنة 50 هـ، أي 669 أو 670 م) حملته الأولى لفتح القسطنطينية، وكانت بقيادة سفيان بن عوف الأزدي، لكنها فشلت وحل الشتاء وصعبت ظروف القتال، وفي آخر الأمر عادت خاسرة إلى الشام، وقُتل فيها الكثير من المسلمين بينهم الصحابي أبو أيوب الأنصاري.

ثم أرسل حملته الثانية بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري سنة 53 هـ (673 م)، وتمكّن الأسطول في طريقه من فتح جزيرتي أرواد ورودس الواقعتين على ساحل آسيا الغربي،وقد أقام جيش المسلمين فيهما سبع سنين وجعلهما قاعدة لحصار القسطنطينية منها، ولذلك فقد سميت أيضاً بـ«حرب السنين السبعة«، وكان المسلمون يحاصرون المدينة خلال الصيف، ثم يرحلون في الشتاء، غير أن الروم صمدوا ، واضطّرَّ معاوية بن أبي سفيان في النهاية إلى سحب الأسطول وإعادته إلى قواعده دون فتح القسطنطينية في سنة 60 هـ (680 م).

وضع معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع قائداً على جيش المغرب، وكان هو الذي قاد العديد من الحملات في عهد معاوية في تلك البلاد. بنى عقبة بإذن من معاوية مدينة القيروان بين سنتي 50 و55 هـ لتصبح مركزاً للمسلمين تنطلق منه قواتهم للغزوات، وذلك بعد أن توسَّعت بلادهم وأصبحت أرض مصر بعيدة، كما عقد – هو وأبو المهاجر دينار من بعده – الكثير من الصُّلوح مع أمازيغ المغرب، وأقاما معهم علاقات طيبة، ونجحا في إدخال الكثير من قبائلهم في الإسلام.

وعسكرياً، تتابعت فتوحات المغرب سيرها في عهد معاوية حتى فُتح أغلب المغرب الأوسط، ووصلت جيوش المسلمين إلىتلمسان . وأما في جبهة الشرق، فقد فتح المسلمون سجستان فقوهستان في سنتي 43 . 45 هـ، وغزو بلاد اللان وما وراء النهر والسند وجبال الغور، غير أن أهالي هذه المناطق كانوا ينكثون العهد مرة بعد أخرى، فعاد المسلمون لفتحها مجدداً مراراً وتكراراً .

كان من أبرز التغيرات على الصَّعيد السياسي في عهد معاوية بن أبي سفيان، أنه نقل عاصمة الدولة من الكوفة إلى دمشق) بعد أن كان علي قد نقلها من المدينة إلى الكوفة)، وقد أثار هذا سخطَ بعض أهلالعراق والحجاز . كما شهدت الدولة في عهده فترة من الاستقرار والرخاء، ومتابعة الفتوحات بعد توقف طويل .وقد ألغى معاوية في عهده نظام مجلس الشورى، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلَّ يستشير أصحابه ومن حوله دائماً في أغلب أفعاله وقد أنشأ نظاماً للشرطة لحماية وحراسته يعينه بنفسه،كما طوَّر ديوان البريد وأنشأ ديواناً جديداً لتنظيمه أكثر هو ديوان الخاتم .

انتقال الحكم إلى المروانيين

- معاوية بن يزيد
- مروان بن الحكم
- عبد الله بن الزبير
- الحسين بن علي

قامت – داخلياً – الكثير من القلاقل في بداية عهد معاوية بن أبي سفيان، حيث حاول الخوارج أن يثوروا من جديد على الخلافة، ولذلك فقد قاتلهم معاوية، وبحلول عام 45 هـ نجح في إخماد ثورتهم وعاد الاستقرار الداخليُّ إلى الدولة،وظلَّ الوضع كذلك حتى وفاة معاوية في شهر رجب سنة 60 هـ (شهر أبريل سنة 680 م). وكان معاوية قد جعل أهل الشام والمدينة يبايعون ابنه يزيد منذ سنة 50 هـ، فكان ذلك، وأصبح يزيد وليَّ العهد، وبما أنه كان بعيداً عن دمشق عند وفاة والده فقد أخذ البيعة له الضحاك بن قيس، وعندما عاد بدأت الوفود بالقدوم لتعزيته بوفاة أبية وتهنئته بالخلافة.

عاد يـ زيد تعيين عقبة بن نافع قائداً لجيوش المغرب، فقاد هذا حملته الكبيرة سنة 62 هـ التي عبر فيها ساحل شمال أفريقيا بأكمله حتى بلغ مدينة طنجة على سواحل المحيط الأطلسي، وهناك قال مقولته الشهيرة» : اللهم اشهد أني قد بلغت المجهول، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك

حتى لا يعبد أحدَ دونك.« لكن عندما كان عائداً من حملته هذه لم يكن معه سوى جيش صغير من 300 مقاتل بعد أن سرَّح معظم جيشه وتركه يسير أمامه على مسافة بعيدة،

وعلم بذلك الرُّوم، فتحالفوا مع الأمير الأمازيغي كسيلة بن كمرم) الذي كان قد أسلم، لكنه ضغن لعقبة لأنه كان قد أهانه قبل ذلك) ونصبوا كميناً لجيش المسلمين، وقُتل في الكمين عقبة بن نافع وكل من كانوا معه، كما قتل في الكمين قائد المغرب السَّابق أبو المهاجر دينار ،وكان ذلك في عام 63 هـ . وإثر اندحار جيش المسلمين فقد تمكّن كسيلة على رأس جيوش الأمازيغ من شق طريقه بسهولة واستعادة أرض إفريقية ومدينةالقيروان، ومضى زمنّ طويل قبل أن يستعيد المسلمون هذه المناطق،واضطرُّوا على إثر ذلك إلى الانسحاب حتىإقليم برقة . كما شهدَ عهد يزيد بعض الفتوحات المحدودة في المشرق بخراسان وما وراء النهر .

لكن ظهرت مشكلة جديدة مع بداية عهد يزيد، فقد كان من ضمن شروط تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أن يصبح هو الخليفة بعد وفاة معاوية، غير أنه توفيَّ قبل معاوية بعشر سنوات، وعندما حدثَ ذلك اجتمع أهل الكوفة في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، واتفقوا على مراسلة أخيه الحسين بن علي بن أبي طالببالقدوم إليهم لمبايعته على الخلافة .وقد ارتاب عبد الله بن عباس من هذه الدعوة، ونصح الحسين بالحذر من أهل الكوفة وعدم الاستجابة له، غير أن عبد الله بن الزبير - الذي كان هو نفسه يطمع بالخلافة، وأراد إبعاد الحسين عن الحجاز لكي تخلوا له – حثّه على الذهاب وأقنعه بالاستجابة إليهم، فاقتنع الحسين بذلك. وكان الحسين قد رفض بيعة يزيد من قبل (وكان معارضاً لها منذ تعيينه ولياً للعهد)،

وعندما جاءته رسائل أهل الكوفة أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستطلع الأوضاع، فبايعه هناك أكثر من 12,000 من أهل المدينة، وعندما علم يزيد بذلك عزلالنعمان بن بشير عن ولايتها وعيَّن مكانه عبيد الله بن زياد، فقبض هذا سريعاً على مسلم بعد أن تركه أهل الكوفة وانفضُّوا عنه وقتله .ووصلت هذه الأخبار إلى الحسين وهو في طريقه، لكن رجاله – وعددهم 70 – أصرُّوا على مواصلة السير للثأر لمسلم، والتقى هؤلاء قرب كربلاء بجيش يفوقهم عدداً بـ50 ضعفاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعلى الرغم من عرض الحسين السلام فقد أصرَّ عمر على أن يسلّم الـ حسين نفسه كأسير حرب أو أنه سيبدأ القتال، ورفض الحسين، فوقعت معركة كربلاء في 10 محرم سنة 61 هـ (12 أكتوبر سنة 680 م)، وقُتل الحسين وكل من كان معه، وكانت تلك بادرة لانقسامات كبيرة في الدولة الإسلامية ستدوم قروناً طويلة .

كان عهد يزيد بالإجمال مليئاً بالفتن والقلاقل والانقسامات، ولذلك فقد سمي بـ«الفتنة الثانية»، وكان من أكبر هذه الفتن في عهده مقتل الحسين، ويبقى حادث آخر إلى جانبها . فعندما قُتل الحسين استغلَّ عبد الله بن الزبير الحدث ليشهر بيزيد ويحرض أهل الحجاز عليه، وبالفعل بايعه أهل الحجاز ومصر، وحاصروا بني أمية في المدينة بمنزل مروان بن الحكم، فغضب يزيد غضباً جماً وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة، وأمره بمحاصرتهم ثلاثة أيام، فإن أبوا إطلاق سراح بني أمية ومبايعته فليقاتلهم . وعندما بلغ المدينة دخلها من جهة تسمَّى الحرة، وهناك التقى أهلها، لكنهم رفضوا مبايعة يزيد، وكانت موقعة الحرة سنة 61 هـ، وهزم أهل المدينة وقتل 300 منهم،

ودخل مسلم المدينة عنوة واستباحها وقتل الكثير من أهلها وأجبرهم على مبايعة يزيد بالقوَّة .وبعد هذه الأحداث سار مسلم نحو مكة للقضاء نهائياً على ثورة ابن الزبير ،

وقد توفيَّ مسلم في الطريق إلى مكة، فأكمل قيادة الجيش» الحصين بن نمير«، لكن عند وصوله وجد ابن الزبير ورجاله معتصمين في الكعبة أملاً في الحصول على الأمان نظراً إلى حرمتها. غير أن جيش يزيد نصب المنجنيقات حول الكعبة وأخذ بضربها، وكان ذلك في صيف عام 64 هـ (683 م)، لكن سرعان ما وصلت أنباء وفاة الخليفة يزيد، فاضطرب الجيش وعاد إلى الشام تاركاً ابن الزبير دون قتله .

كان يفترض أن يرث معاوية بن يزيد الحكم بعد أن عيَّنه والده ولياً للعهد قبل وفاته، لكنه تنازل عن الخلافة وقال أنه لا يمكنه حمل عاتقها، وتوفيَّ بعد ذلك بأسابيع .وهنا تقدم شيخ بني أمية ووالي المدينة مروان بن الحكم وطالب بالخلافة لنفسه وبايعه أهل المدينة واليمن، غير أن ابن الزبير أعلن نفسه خليفة في الآن ذاته، وبايعه أهل العراق ومصر بل ومعظم أهل الشام، ومنهم الضحاك بن قيس الفهري، فسار إليه مروان والتقاه في معركة مرج راهط ، وقُتل الضحاك في المعركة وبويع مروان، وقد استعاد أيضاً مصر دون قتال كثير، كما أنه قضى سريعاً على ثورة التوابين عندما واجه عبيد الله بن زياد بجيش قوامه 60,000 مقاتل الثائرين الـ3,000، غير أن مروان سرعان ما توفيَّ في شهر رمضان سنة 65 هـ (685 م) بعد حكم دام عشرة شهور.

وقد تابع بعده ابنه عبد الملك ، لكنه استلم الحكم وبلاد المسلمين مقسومة بين خمس دول، فإلى جانب الدولة الأموية في مصر والشام كانت هناك دولة ابن الزبير في الحجاز والعراق.

كما نجح المختار الثقفي بعد ثورته في السَّيطرة على الكوفة، وسيطر بعض الخوارج بعد ثورتين على إقليمي الأهوازوالنجدات .سرعان ما قضى مصعب بن الزبير بجيشه على المختار الثقفي، والتحم عبد الملك بعد ذلك معه في «معركة دير الجاثليق» سنة 71 هـ فاستعاد العراق، وفي آخر الأمر أرسل جيشاً بقيادةالحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة سنة 73 هـ فحاصر ابن الزبير هناك في الكعبة، وضرب الكعبة بالمنجنيقات كما حدثَ من قبل، فأصابت الحجارة ابن الزبير وصرعته. كوفئ الحجاج بأن أصبح والي العراق والمشرق، وهكذا استتبَّ الحكم أخيراً لخليفة واحد في البلاد بعد أن عصفَت الصراعات الداخلية بالدولة الأموية لعقد ونصف تقريباً، وسميت سنة 73 هـ بـ»عام الجماعة الثاني".

عهد عبد الملك وأبنائه

- الوليد بن عبد الملك
- سليمان بن عبد الملك

فتح الأندلس

لم تستتبَّ الأمور تماماً في الدولة بسقوط الدولة الزبيرية، إذ ظلّت مشكلة الخوارج، الذين كلّف عبد الملك المهلب بن أبي صفرة الأزدي بقتالهم. وفي سنة 76 هـ هاجم صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد الخارجي خيلاً لمحمَّد بن مروان (والي الجزيرة) وسرقاها، وكان معهم آنذاك 120 شخصاً بايعا شبيب على الخلافة من أهل البصرة بعد أن نادى بها لنفسه، وبعدها دخل في حرب طويلة مع والي العراق والمشرق – الحجاج بن يوسف – الذي سيَّر إليه جيو شاً ضخمة، وقيل أنه خاض مع شبيب 83 معركة في 100 يوم، ولم يربح منها كلها سوى واحدة. وفي آخر الأمر فرَّ شبيب من جيوش الحجاج، ولكنه سقطَ في نهر بينما كان يعبر جسراً في الأهواز وغرق بسبب ثقل دروعه سنة 73 هـ، وبعدها لم تقم للخوارج قائمة حتى عهد عمر بن عبد العزيز .



فتح الأندلس على يدي موسى بن نصير وطارق بن زياد في عهد الوليد بن عبد الملك.

سبَّبت النزاعات الداخلية في الدولة بشل حركة الفتوحات لعقد تقريباً، لكن عندما اتّحدت الدولة أخيراً من جديد في عام 73 هـ (عام الجماعة الثاني) عادت الفتوحات من جديد. تولّى زهير بن قيس البلوي قيادة جبهة المغرب بعد موت عقبة بن نافع، وعزم على الثأر له، غير أنه لم يستطع التحرك حتى عام 69 هـ

بسبب مشكلات الدولة الداخلية،وحينها قاد جيشه نحو المغرب واستعاد القيروان وقتل قائد الأمازيغ كسيلة في «معركة ممس" ،لكنّه قتل بدوره في كمين بيزنطيٍ خلال عودته سنة 71 هـ

.وبعد مقتل ابن الزبير عيَّن عبد الملك حسان بن النعمان مكان زهير وأعطاه جيشاً ضخماً من الشام ومصر قوامه 40,000 مقاتل، وتمكّن من القضـاء على الوجود البيزنطي في شمال أفريقيا، كما دمر مدينة قرطاجنة - أكبر مركز بيزنطي في المنطقة – بعد أن اقتتل فيها مع الروم والأمازيغ وأجبرهم على الهرب نحو صقلية والأندلس، لكنه مع ذلك هزم على يد الكاهنة التي كانت تقود الأمازيغ خلفاً لكسيلة، وبعدها عاد الروم البيزنطيون إلى قرطاجنة وعاثوا فيها فساداً، ولكن عبد الملك لم يستطع إمداده بجيش لمقاومتهم. وفي النهاية وصل المدد أخيراً فتوجَّه إلى قتال الأمازيغ سنة 82 هـ وقتل كاهنتهم، ثم فتح فاس وقرطاجنة وجل المغرب، وبنى قرب قرطاجنة مدينة تونس التي لا زالت قائمة إلى اليوم. وأما على جبهة الشام والأناضول فقد اضطرَّ عبد الملك لمصالحة البيزنطيين ودفع مال لهم أثناء صراعه مع ابن الزبير لأنه لم يكن يستطيع الدفاع ضد هجماتهم، لكن بعد انتهاء الصراع سنة 73 هـ (692 م) كانت لعثمان بن الوليد موقعة كبيرة معهم في أرمينيا، حيث التقى 60,000 منهم بجيش قوامه 4,000، فهزمهم وقتل الكثير منهم، وتعرف هذه الموقعة بـ«معركة سبياستوبولس» ، وقد تبعها فتح مجمل أرمينيا وضمُّها إلى الدولة الأموية .

كانت هناك غزوات كثيرة في عهد عبد الملك لبلاد ما وراء النهر، لكنها لم تُفتح، حيث كان المسلمون يغزونها ويغنمون منها ثمَّ ينسحبون عائدين إلى معاقلهم، ومن أبرز غزواتهم غزوة بخارى سنة 80 هـ. وقد كان من ملوك هذه الأرض الكبار ملك يسمَّى»رتبيل «غزاه المسلمون مراراً وتكراراً، فغزاهم سنة 79 هـ وقتل أميرهم» عبيد الله بن أبي بكرة"، فجهَّز الحجاج بن يوسف جيشاً كبيراً سمي بـ»جيش الطواويس «وأعطاه لعبد الرحمن ابن الأشعث ليغزو به رتبيل (على الرغم من البغض المتبادل الذي كان بين عبد الرحمن والحجاج)، فغزا ابن الأشعث رتبيل وفتح الكثير من أراضيه، لكنه أوقف القتال ولم يكمل الفتوحات بعد ذلك، إنما حرَّض جيشه على الحجاج وعلى خلعه بل وخلع الخليفة، فوافقوه وبايعوه، وكانت تلك بداية واحدة من أعنف الثورات ضد الحكم الأموي على الإطلاق، مع أن وازعها لم يكن دينياً أو مذهبياً إنما شخصياً .دخل ابن الأشعث البصرة وتبعه أهلها، ثم طُرِد منها فذهب إلى الكوفة، وقربها دارت وقعة دير الجماجم سنة 83 هـ وهزم فيها، فهرب إلى سجستان وانتحر هناك .كان والي العراق والمشرق) خراسان وسجستان وغيرها) طوال عهد عبد الملك وجزء كبير من عهد ابنه من بعده هو الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد كان له دور كبير في إخماد الخوارج وتهدئة الأوضاع في العراق بعد أن عصفت بها الثورات طوال العقود السابقة، حيث اتَّخذ سياسة ترهيب ضدَّ أهلها، وكان يلاحق قادة الخوارج وكل من يَدعون لعصيان الخليفة وقتل الكثير منهم، وقد خلّف هذا سمعة سيئة للدولة الأموية عند أهلها (على الرغم من أنهم كانوا بالفعل يبغضون الأمويين)

كانت سبباً مهماً وبارزاً في سقوط الدولة لاحقاً، كما فصلت بين أهل الشام كمؤيدين للخلافة وأهل العراق كمعارضين لها. وقد منح هذا الأمر الحجاج سمعة سيئة في العراق، ويقول البعض عنه أنه قتل 100 ألف من أهلها، ولو أن مثل هذا الرَّقم غير مثبت .

كان من أبرز الإنجازات في عهد عبد الملك أيضاً بناء مسجد قبة الصخرة في القدس بجوار المسجد الأقصى سنة 691 م،كما أنه عرَّب الكثير من الدواوين وعرب سكَّ النقود للمرة الأولى في تاريخ الدولة. وقد توفيَّ عبد الملك بن مروان بن الحكم في شهر شوال سنة 86 هـ (أكتوبر سنة705 م(، تاركاً الحكم لابنه الوليد، وقد جرت في عهده فتوحات عظيمة، وبلغت فيه الفتوحات الأموية ذروتها، حيث أنها يمكن أن تعد الذروة الثانية للفتوحات الإسلامية بعد أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .

عزل حسان عن المغرب في عهد عبد الملك وعيِن مكانه موسى بن نصير سنة 86،وهنا سار على رأس جيش كبير، وأتمَّ فتح المغرب،ونجح في إدخال الكثير من قبائل الأمازيغ بها في الإسلام، وفي سنة 90 هـ وصل إلى مدينة طنجة، ففتحها ووضع فيها حامية من 12,000 رجل بقيادة طارق بن زياد الليثي .وحسب ما رواه الذهبي فقد جهَّز موسى بن نصير ابنه عبد الله للفتح منذ عام 86 هـ عندما أمره بفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة الواقعتين على ساحل الأندلس، لكن هناك أيضاً رواية أخرى أيضاً – رواها ابن الأثير - تذكر أنَّ أمير مدينة سبتة» يوليان» دعى ابن نصير بنفسه لفتح الأندلس وتخليصه من حكم القوط الغربيين) الذي كانوا حكامها آنذاك)،

وأخبره بأن البلاد كانت في حالة من الفوضى والنزاعات الداخلية وأنها لن تشهد مقاومة كبيرة. وقد استأذن ابن نصير الخليفة في الفتح، فأذن له إن تأكد من حسن نوايا يوليان، فأرسل حملة استطلاعية من 500 رجل بقيادة طريف بن مالك، الذي أكد له أقوال يوليان، فأرسل طارق بن زياد مع 7,000 جنديٍ إلى الأندلس في شهر رجب سنة 92 هـ (مايو سنة 711 م)، وهنا عاد ملك البلاد رذريق وسار إليه بـ100,000 رجل، فأمده ابن نصير بخمسة آلاف، والتقى الجيشان في معركة وادي لكة التي انتصر فيها المسلمون وقُتل رذريق،وفُتحت الأندلس بعدها مدينة تلو الأخرى دون مقاومة تذكَر . لكن وعلى الرُّغم من رغبة موسى بن نصير في إكمال الفتوحات، بل ونيته في فتح أوروبا كلها من الأندلس حتى يبلغ القسطنطينية من الغرب، فقد عارض الوليد بن عبد الملك مثل هذا الأمر بشدة لما قد يعود به من عواقب على جيوش المسلمين في تلك البلاد البعيدة، وأمر ابن نصير وطارق بن زياد بالعودة إلى دمشق، فامتثلا لأمره وبقيا هناك حتى وفاتهما، وتوقّفت فتوحات أوروبا إثر ذلك حتى نهاية عهد الوليد.

فــي بــلاد الــروم – البيــزنطيين – اسـتمرَّ الصـوائف والشـواتي علــى الـدوام، لكـن كانـت الحـدود الفعليـة شـبه ثابتـة، حيـث يعـود المسـلمون دائمـاً إلـى حصـونهم بعـد الغـزوات. ومـن الغـزوات الكبيـرة غزوتـان لمسلمة بـن عبـد الملـك، واحـدة سـنة 89 هـ وصـل فيهـا حتـى مـدينتي عموريـة وهرقليـة، وأخـرى فــي سـنة 92 هـ عبـر فيهـا كـل الأناضـول حتــى بلــغ بحـر مرمـرة . كمـا غـزا المسـلمون فـي البحـر جزيرتي ميورقة وصقلية سنة 89 هـ ، وجزيرة سردينيا سنة 92 هـ

عيَّن الحجاج بن يوسف الثقفي قائدين في المشرق كان لهما دور بارز جداً في الفتوحات خلال عهد الوليد بن عبد الملك .تولّى أولهما وهو قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة جيوش خراسان سنة 87 ه706 م ، وقد باشر قتيبة فتوحاته في بلاد ما وراء النهر في العام نفسه،ففتح بيكند،ثم فتح بخارى وبلخ سنة 90 ه،وسمرقند سنة 93 ه، وكابل سنة 94 ه، وأخيراً فتح كاشغر سنة 96 ه (وهي عاصمة تركستان الشرقية(، وهكذا بلغ حدود الصين، ولم يغزو الصين قط، غير أنه أجبر إمبراطور ها على دفع الجزية للأمويين، وكانت تلك أقصى فتوحات المشرق، حيث عزل عن ولايته في العام ذاته، وقد بلغت بذلك مساحة الأراضي التي ولِّي عليها (وهي ولاية خراسان وعاصمتها آنذاك مرو (أكثر من 4,000,000كيلومتر مربع، وبلغ طول حدودها أكثر من 4,000 كم. وأما محمد بن القاسم الثقفي فقد تولّى في الوقت ذاته فتح إقليم السند ، حيث سار في شهر ربيع الأول سنة 89 ه (707 م) على رأس جيش قوامه 6,000 رجل وهو ابن سبعة عشر عاماً، وفتح مدينة» الدبيل «الواقعة مكان كراتشياليوم سنة 93 ه، وفرَّ منها ملك السند داهر ، الذي التقاه المسلمون لاحقاً في معركة على نهر مهران، وانتصروا فيها وقتلوا داهر على الرغم من استعانة الهنود بالفيلة في المعركة وأخيراً فتح مدينة الملتان سنة 94 ه، وهي من أهم مدن تلك البلاد، وبذلك أتمَّ فتح السند وضمَّت بدورها إلى الدولة الأموية.

كان من الإنجازات البارزة الأخرى في عهد الوليد بناء الجامع الأموي الكبير أو مسجد بني أمية في مدينة دمشق، إذ كان متقسماً بين المسلمين والمسيحيين لتأدية عباداتهم منذ فتح الشام، لكن مع ازدياد أعداد المسلمين قرَّر الوليد تحويله بأكمله إلى مسجد، وذلك مقابل تعمير أربع كنائس للمسيحيين في المدينة، وكان ذلك في السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة .ولكن بناء الـ مسجد لم يكتمل إلا بعد عشر سنوات، في عام 715 م، حيث أن العمل كان كبيراً واحتاج وقتاً طويلاً. كما قام الوليد بتوسعة المسجد النبوي في المدينة. واهتمَّ بتعبيد الطرق في الدولة، خصوصاً الطرق المؤدية إلىمكة لتسهيل الحج إليها من أنحاء العالم الإسلامي .

توفيَّ الوليد في شهر جمادى الآخرة سنة 96 هـ (فبراير سنة 715 م)، وتولّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك. وفي عهده فتح يزيد بن المهلب - والي خراسان – سنة 98 هـ إقليمي طبرستان وقهستان .وأما الحدث الأبرز في عهده فقد كان حصار القسطنطينية سنة 98 هـ، وهو حصار أداره بنفسه مع أخيه مسلمة بن عبد الملك من أرض دابق، وظلَّ هناك سنة كاملة، حتى توفيَّ وهو لا يزال في دابق في شهر صفر سنة 99 هـ (سبتمبر سنة 717 م)، وقد امتَدحت

خلافته وقيل عنه أنه أحسن إلى الناس ومعاملتهم بعد أن كان قد شدَّ عليهم الحجاج في أيام عبد الملك والوليد، كما امتَدح أيضاً لاختياره ابن عمه عمر بن عبد العزيز خليفة من بعده .

عهد عبد الملك بن مروان

أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي 26) هـ 86 - هـ705 - 646 / م (الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية والمؤسس الثانيللدولة الأموية .ولد في المدينة وتفقه فيها علوم الدين، وكان قبل توليه الخلافة ممن اشتهر بالعلم والفقه والعبادة، وكان أحد فقهاء المدينة الأربعة، قال الأعمش عن أبي الزناد» :كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان.«استلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم سنة 65 هـ الموافق684 م ، وحكم دولة الخلافة الإسلامية واحدا وعشرين عاما.

تسلم عبد الملك بن مروان حكم الدولة الأموية في وقت كانت الفتن والاضطرابات والانقسامات تعصف بها. في الكوفة كان أنصار الحسين يشعرون بالتقصير والذنب بعد كارثة كربلاء، وعندما عم الاضطراب أنحاء بلاد العالم الإسلامي بعد موت يزيد بن معاوية خرجت من الكوفة ثورة التوابين في 5 ربيع الثاني 65 هـ وفيمنطقة عين الوردة استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على ثورتهم. ما إن أُخمدت ثورة التوابين حتى خرج المختار الثقفي بشعار يا لثارات الحسين، واصطدم مع الأمويين في أكثر من وقعة انتصر فيها، لكن مصعب بن الزبير كفى عبد الملك مواصلة قتاله واستطاع قتله وإخضاع الكوفة تحت سلطة ابن الزبير. كان الحجازوبقية بلاد المسلمين إلا دمشق وجزءا من الأردن تدين لعبد الله بن الزبير،

وأدى زوال خطر المختار الثقفي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، فخرج عبد الملك إلى العراق، وانتصر على مصعب في معركة دير الجاثليق عام 72 هـ، ثم سارع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي لمواجهة عبد الله بن الزبير، فحاصر الحجاج مكة، وانتهى الحصار بمقتل عبد الله بن الزبير ودخول مكة تحت سيادة بني أمية على الحجاز عام 73 هـ، وبهذا انتهت خلافة ابن الزبير وتوحد العالم الإسلامي تحت ولاية عبد الملك بن مروان وأصبح الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين .

بعد أن استشرى خطر الخوارج عيَّن عبد الملك المهلب بن أبي صفرة قائدا لمحاربتهم، وبعد سلسلة طويلة من المعارك دامت ثلاث سنوات تمكن من التغلب علىالخوارج الأزارقة عام 78 هـ .ثم أمر عبد الملك الحجاج بن يوسف ببدأ عمليات التصدي للخوارج الصفرية، وتمكن بعد عدة معارك من التغلب عليهم. ما إن استتب الأمر لابن مروان حتى قامت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام 81 هـ واستمرت حتى عام 83 هـ، وانتهت بوقعة دير الجماجم التي تصدى لها الحجاج وانتهت الثورة بانتحار ابن الأشعث بعد هروبه من المعركة في سيجستان.

لم يكن لعبد الملك نشاط كبير في الفتوحات الإسلامية: ففي جبهة المشرق الإسلامي ظلت فتوحات المسلمين على ما كانت قبل توليه الخلافة، أما الجبهة البيزنطية فقد عانى المسلمون من هجمات النصارى المردة، وبسببهم عقد عبد الملك مع الإمبراطور البيزنطيجستنيان الثاني معاهدة عام 79 هـ الموافق689 م لمدة عشر أعوام.

في حين كانت الجبهة الأفريقية المحور الجدّي لفتوحات عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي لأفريقية، وإخضاع البربر لسلطة الدولة، واستطاع القائد حسان بن النعمان الغساني الاستيلاء علىقرطاجنة البيزنطيين، والقضاء على جيش البربر بقيادة الكاهنة ديهيا .

كانت خلافة عبد الملك بن مروان مليئة بالصراعات والثورات والحروب التي أخذت جلَّ وقته وجهده، وعلى الرغم من ذلك تذكر كتب التاريخ عددا من إنجازاته أهمها: سك أول دينار ذهبي إسلامي خالص عام 77 هـ والاستغناء عن كافة الصور والرموز الملكية والمأثورات الدينية المسيحية التي يحتملها الدينار البيزنطي. وتعريب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، إذ يعد أول من بدأ تعريب الدواوين في التاريخ الإسلامي .بالإضافة لقيامه بجهود كبيرة في العمارة والبناء: فقام ببناءالكعبة على بناء قريش، وبناء مسجد قبة الصخرة، بالإضافة لبناء مدينتي واسط في العراق وتونس في الشمال الإفريقي.

نسبه ونشأته

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بننزار بن معد بن عدنان الأموي القرشي .أبوه مروان بن الحكم رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق، ومؤسس الدولة الأموية الثانية،

بويع بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، في وقت كان نفوذ الأمويين قد ضعف، وبايعت أغلب الأقاليم عبد الله بن الزبير خليفةً للمسلمين. استطاع مروان السيطرة على الشام، وخرج بجيشه إلى مصر التي كانت قد بايعت عبد الله بن الزبير ودخلها وولى ابنه عبد العزيز عليها، لكنه فشل في السيطرة على الحجاز والعراق. توفي سنة 65 هـ .أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية الأموية القرشية، أمها فاطمة بنت عامر الجمحي. قُتِل أبوها يوم أحد، وأدركت عائشة حياة النبي محمد نحو سبع سنين، ولم يبق بمكةفي حجة الوداع أحد من قريش إلا أسلم وشهدها

ولد عبد الملك في المدينة في خلافة عثمان بن عفان سنة 26 هـ وهي ذات السنة التي ولد فيها ثاني خلفاء بني أمية يزيد بن معاوية .أول من سمي باسم عبد الملك في الإسلام هو عبد الملك بن مروان، وقيل أول من سمي عبد الملك وعبد العزيز هما أبناء مروان بن الحكم.[10] كان عبد الملك ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، وربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، ولذلك كان يقال له: أبو الذبَّان،وكان أبيض اللون ليس بالنحيف ولا البدين، مقرون الحاجبين، كبير العينين، دقيق الأنف، أبيض الرأس واللحية. كان عبد الملك قبل توليه الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن، قال نافع: « لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»، وقال الأعمش عن أبي الزناد» :كان فقهاء المدينة أربعة :سعيد بن المسيبوعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك قبل أن يدخل الخلافة»، وقال الشعبي» : ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنني ما ذاكرته حديثًا إلا زادني فيه، ولا شعرا إلا زادني فيه».

روى عبد الملك الحديث عن أبيه ومعاوية بن أبي سفيانوعن أم المؤمنين أم سلمة وعن بريرة مولاة عائشة بنت أبي بكر، وعن جماعة من التابعين .

وممن روى عن عبد الملك البخاري في كتابهالأدب المفرد، والإمام الزهري وعروة بن الزبير وخالد بن معدان وهو من فقهاء التابعين وعبَّادهم، ورجاء بن حيوة أحد الأعلام .قال ابن كثير :"وسمع من عثمان بن عفان، وهو ممن سار بالناس في بلاد الروم سنة اثنين وأربعين، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والصلحاء والعبَّاد، وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبريرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة منهم: خالد بم معدان وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان.«كان عبد الملك حبوبا ومرغوبا من عمومته ومن كبار بني أمية، وذُكر أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسا يوما ومعه عمرو بن العاص ومر بهما عبد الملك فقال معاوية: ماآدب هذا الفتى وأحسن مروءته، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثاً، أخذ بحسن الحديث إذا حدث، وحسن الاستماع إذا حدث، وحسن البشر إذا لقي، وخفة المئونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروته

سيرته قبل الخلافة

كان أول حادث سياسي شهده عبد الملك هو حادث مقتل عثمان بن عفان، وكان عمره ذلك الحين عشر سنوات. وكان أول منصب إداري تولاه في الدولة في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد عينه عاملاً على هجر، ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت، وشارك في الجهاد على رأس حملة إلى أرض الروم سنة 42 هـ، وكان ضمن الجيش الذي غزا إفريقيا مع معاوية بن خديج، وكلفه بفتح جلولا في الشمال الأفريقي. في عهد يزيد بن معاوية كانت علاقته بالزبيريين تسير بشكل جيد، فكان يقول عن ابن الزبير: ما على الأرض اليوم خيرا منه، وكانت علاقته بمصعب بن الزبير حسنة .

بعد وفاة يزيد استلم سدة الحكم ابنه معاوية بن يزيد، الذي لم تدم فترة حكمه قبل موته عدة أشهر على قول، وأربعين يوما على قولٍ آخر، في هذه الفترة بدأت الحركات المناوئه للأمويين تظهر على السطح، وبدأ الانقسام في العالم الإسلامي يستشري، ففي العراق نشأة ثورة التوابين المطالبة بدم الحسين بن علي، وفي الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير استقلاله بالخلافة عن تبعية بني أمية.

كانت هذه الأحداث وتسارعها محركاً لاجتماع بني أمية في دمشق، بعد أن أحسوا أنهم أسرى القوى القبلية ا لمتنافسة والمتصارعة سياسيا وعسكريا، فالحزب اليمني بقبيلته كلب النافذة في البلاط الأموي بزعامة حسان بن مالك الكلبي كانت متشددة بالحفاظ على امتيازاتها في ظل الدولة الأموية، وخشيت من انتقال الخلافة إلى الحجازيين. أما الحزب القيسي فقد كان مستاء من محاربة يزيد لأهل المدينة،

وقد وصل زعيمها الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة منحته الأحداث السياسية بعد وفاة معاوية الثاني مركزا متقدما من خلال منصبه كأمير بلاد الشام حيث أتيحت له الفرصة أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية، كما وجد القيسيين في دعوة ابن الزبير فرصة تمكنهم من التغلب على الكلبيين وانتزاع القوة من أيديهم، وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت آرائهم بين ثلاثة مرشحين: فقد أيد حسان بن مالك خالد بن يزيد بن معاوية، ومال بعض القادة إلى مروان بن الحكم، وساند فريق ثالث عمرو بن سعيد.

اتفق بني أمية على عقد مؤتمر في الجابية ليتداولوا فيمن يولونه الخلافة ترأسه حسان بن مالك، وكان مروان بن الحكم الأوفر حظًا لشيخوخته وكبره وعظم تجربته. انتهى المؤتمر لمصلحة ابن الحكم حيث اختير بإجماع الحاضرين، وخرج الكلبيون ممن أيدوا خا لد بن يزيد بترضية حيث اختير مرشحهم وليا للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد. بذلك انتقل الملك والخلافة في البيت الأموي من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني. استاء الضحاك بن قيس من خروج الأمر من يد ابن الزبير، فعادر دمشق إلى مرج راهط، وعسكر هناك وانضم إليه النعمان بن بشير والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين .خرج مروان بن الحكم ومعه بني أميه وأنصاره لقتال القيسيين، وجرت بين الطرفين مفاوضات لتسوية الموقف، وعقد صلح بين الطرفين استمر عشرين يوما، لكنه انهار لما وصلت أنباء استيلاء المروانيين على دمشق وإخراج عامل الضحاك منها وإعلان خلافة مروان بن الحكم فيها. في شهر ذي القعدة عام 64 هـ الموافق684 م التقى الجمعان في مرج راهط،

وانتهت المعركة بهزيمة القيسيين وقتل زعيمهم الضحاك، وهروب زفر بن الحارث الكلابي بعد المعركة إلى قرقيساء وتحصن بها، فلما جاءت خيول بني أمية فر منها إلى العراق، واستتب الأمر لمروان في الشام وفلسطين .

أما عن دور عبد الملك السياسي في عهد والده مروان بن الحكم، فقد تولى إمارة فلسطين، ولكنه كان يبعث نائبا عنه وهو روح بن زنباع وذلك حتى يبقى في دمشق قريبا من إدارة الدولة ولمساعدة والده هناك، حيث كانت الدولة في الفترة التي تولى فيها والده الحكم محاطة بالأعداء والخصوم من الداخل والخارج، ثم تولى إمارة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر. في شهر رمضان من عام 65 هـ توفي مروان بن الحكم ولم يحقق هدفه بإعادةالحجاز والعراق إلى الحكم الأموي، وكان ابن مروان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بعد أن أقتع الكلبيين ممن ساندوا خالد بن يزيد بعدم قدرته على التصدي لابن الزبير، واعتبر ما تم في مؤتمر الجابية من العهد لخالد بن يزيد ومن بعد لعمرو بن سعيد ضرورة، وقد زالت الضرورة الآن .

الخلافة

بويع لعبد الملك بن مروان بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده في دمشق عام 65 هـ. بايع بني أمية ابن مروان بالخلافة، لكن الوضع كان مختلفاً مع العلماء، فقد بايع بعض العلماء ابن مروان في الشام، وكانوا قلة لا يعدون شيئاً أما العلماء الذين بايعوا عبد الله بن الزبير، أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة. اختلف العـ لماء اختلافاً كبيرا من عبد الملك، فهناك من خرج عليه مثل عبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصري، وهناك من كان قريبا منه ناصحا له كقبيصة بن ذؤيب. في بداية ولاية عبد الملك كان العالم الإسلامي منقسم بين أبع جماعات: فئة الأمويين الذين يسيطرون على الشام ومصر، وعبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز والعراق، والحركة العلوية في العراق بقيادة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وجماعة الخوارج .وأكبر ما يوضح هذا الانقسام في العالم الإسلامي أنه في موسم حج عام 68 هـ ارتفعت أربعة ألوية: لواء عبد الملك بن مروان، ولواء محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، ولواء نجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة، ولواء ابن الزبير.

توطيد الاستقرار الداخلي :

القضاء على المعارضة العلوية :

كان مروان بن الحكم قد جهز قبل وفاته جيشًا بقيادة عبيد الله بن زياد لاخضاع زفر بن الحارث في منطقة الجزيرة، وعينه أميرا على كل ما يفتحه، فلما كان في الجزيرة أتاه نعي مروان، وكتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله والده ويحثه على المسير إلى العراق .كان العراق إقليم مليء بالأحداث السياسية، فالكوفة كانت مركزًا لمعارضة السياسية، وكان أنصار العلويين يشعرون بالتقصير والذنب بعد كارثة كربلاء، لكنهم اضطروا للتهدئة طيلة حكم عبيد الله بن زياد، لكن عندما عم الاضطراب أنحاء بلاد العالم الإسلامي بعد موت يزيد بن معاوية وفرار ابن زياد، أخذ أنصا ر الحسين بن علي يتصلون ببعضهم البعض لوضع خطة للثأر لدم الحسين، وبدأوا يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وانتهت الاجتماعات بقولهم: «أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه»، وغلب عليهم اسم التوابين وكان شعارهم الثأر للحسين .

كتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان أمير المدائن يدعوه للانضمام لدعوتهم فاستجاب له، وقَبِل الدخول معه في ثورته ودعوته، فزاد ذلك الأمر التوابين قوة وعزما ونشاطًا، ثم أنهم أرادوا استعجال الخروج ولكن سليمان ثبطهم حتى لا يكشف أمرهم. في هذا الوقت أَخرج أهل الكوفة عامل ابن زياد عليهم واستقبلوا عامل ابن الزبير حيث أن ابن الزبير

قد استفحل أمره ودانت له كل البلاد عدا الشام. أثناء الإعداد للثورة ظهرت على مسرح الأحداث شخصية أثرت بشدة على مجرى الأحداث وهوالمختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان عند ابن الزبير، ولكنه ما لبث أن اختلف معه ثم خرج من مكة متوجها للكوفة وبدأ يدعو لخلافة محمد بن الحنفية ولقبه بالمهدي وأدى ذلك لتفرق صف أنصار الحسين وصاروا فرقتين: جمهورهم مع سليمان بن صرد للأخذ بثأر الحسين، والباقي مع المختار، وهذا الاختلاف وصلت أخباره لوالي الكوفة من قبل ابن الزبير فحذرهم من محاولة الخروج على الأمويين، لكن هذا التحذير أدى لاستعجال خروج سليمان ومن معه لقتال أهل الشام.

كان تاريخ خروج ثورة التوابين في 5 ربيع الثاني 65 هـ من معسكرهم في النخيلة، قام والي الكوفة من قبل ابن الزبير عبد الله بن يزيد ومن معه من أشراف أهل الكوفة بلقاء سليمان وجيشه قبل خروجهم لمحاولة إقناعهم بتأجيل فكرة الخروج حتى يجتمع عندهم الناس ويكثر عددهم وتقوى جيوشهم وتؤمن لهم مؤونة مافية للحرب، لأن أهل الشام خرجوا في جيش ضخم لحربهم، ولكن سليمان رفض الفكرة وأصر على الخروج. خرج جيش التوابين إلى الجزيرة للقاء أهل الشام، ومروا بطريقهم على قبر الحسين وظلوا يترحمون عليه ويستغفرون له، ثم واصلوا سيرهم، ومر جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات، ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيساء، وكانت هذه المدينة أبعد المناطق في اتجاه الشام التي اعترفت ببيعة ابن الزبير. فخرج لهم في الطريق زفر بن الحارث وكان واليا على مدينة قرقيسياء وعرض عليه أن يقاتلوا أهل الشام على حد باب مدينته تحسبا لحدوث هزيمة فيدخلوا في أمانه، وأن يتونوا حتى تتوحد صفوفهم مع صفوف ابن الزبير،

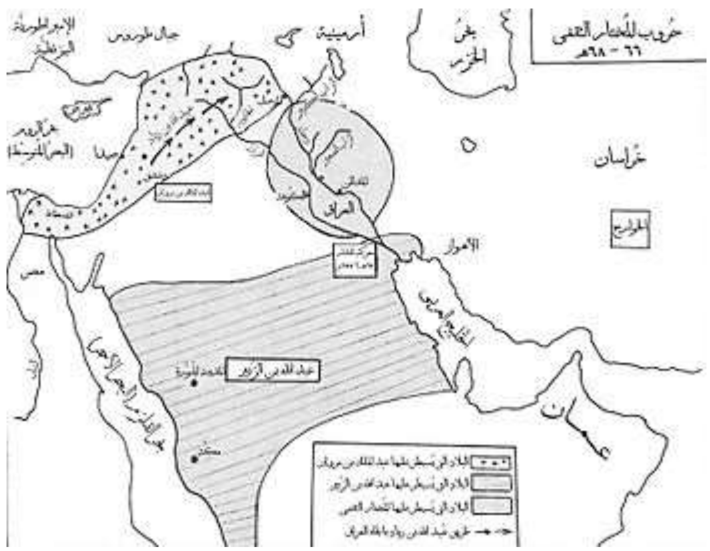
لكن سليمان بن صرد رفض هذه العرض وأصر على مواصلة السير للقتال، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة. سار جيش التوابين حتى نزل عند منطقة عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين، وخطب سليمان في جيشه ووعظهم وذكرهم بالآخرة والنية الصالحة، وأقبل جيش الشام وكان تعداده في أربعين ألفاً، وجيش التوابين أربعة آلاف، ودارت رحى حرب طاحنة لمدة ثلاثة أيام، ولكثرة جند الشام فقد أحاطوا بجيش التوابين من كل مكان ثم رشقوهم بالنبال والرماح حتى قتل قائدهم سليمان بن صرد وعددا من قادته، وفي جنح الليل من اليوم الثالث للمعركة انسحب جيش التوابين بقيادة رفاعة بن شداد إلى الكوفة. أدت هذه الثورة لظهور حركة المختار الثقفي، حيث قام بأمر شيعة العراق بعد وفاة سليمان بن صرد .وقد علق الذهبي على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: « كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسمُّوا جيش التوابين»، وقال ابن كثير في وصف جيش التوابين: «لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين، وكان عمر سليمان بن صرد رضي الله عنه يوم قتل ثلاثاً وتسعين سنة.«

بعت حركة التوابين حركة أخرى نسبت إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي، وعرفت بالمختارية، تميزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع شهار التشيع العلوي، وساهمت إلى حد كبير في تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية. ظهر المختار في ميدان السياسة عام 64 هـ، حيث توجه إلى مكة قادما من الكوفة بعد مقتل الحسين، واتصل بابن الزبير، ونسق معه العمل ضد الأمويين على أساس شروط ثلاث: أن لا يقضي أمراً دونه، وأن يكون أول من يأذن له،

وإذا استعان به على أفضل أعماله. لكن الأمور لم تكن حسنة بين الطرفين ما أدى لعودة المختار إلى الكوفة في الخامس والعشرين من شهر رمضان عام 64 هـ. في الوقت الذي خرج فيه جيش التوابين إلى عين الوردة، كان المختار وراء قضبان السجن بفعل نشاطه المعادي ضد ابن الزبير، لكنه لم يلبث أن غادر السجن، وقاد حركةً سياسية دينية بالمطالبة بدم الحسين وبمناداته بالمهدية بشخص محمد بن الحنفية وأطلق عليه لقب المهدي.

ستطاع المختار ضم بقايا جيش التوابين، بالإضافة لبعض القبائل اليمنية ولا سيما قبيلة نخع وزعيمها إبراهيم بن الأشتر النخعي .استطاع المختار الاستيلاء على الكوفة بعد أن هزم جيش واليها عبد الله بن مطيع، ثم راح يرسل الولاة إلى إمارات أرمينيا وأذربيجان والموصل ليحكموا باسمه. حاول المختار حصر ابن الزبير في الحجاز بالاستيلاء علىالبصرة، حتى يتفرغ لابن مروان وجيشه في الشام، لكنه فشل لما اضطرت فرقته العسكرية التي أرسلها للتصدي لابن زياد في الموصل من الانسحاب رغم انتصارها في المعركة، ترتب على هذا الانسحاب قيام انتفاضة ضد حكمه في الكوفة من قبل الأشراف، إلا أنه قمعها بسرعة، ثم بدأ مهمته بالثأر من قتلة الحسين. في العاشر من شهر محرم عام 68 هـ أرسل المختار جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لوقف زحف الجيش الأموي المرسل من قبل ابن مروان نحو العراق، واستطاع الأشتر الانتصار على الأمويين في معركة جرت عند نهر الخازر، نتج عن المعركة مقتل عبيد الله بن زياد ومعه الحصين بن نمير السكوني، ومع تعاظم نفوذ المختار بعد هذا الانتصار سيطر على شمالي العراق والجزيرة،

ثم أعد جيشًا لقتال مصعب بن الزبير لانتزاع البصرة منه، لكن انضمام قائده ابن الأشتر إلى الأشراف في البصرة أثر على قواه وعدته وأصيب بخسارة فادحة في معركة المذار مع جيش مصعب، ولم يتمكن من الصمود داخل الكوفة بعد أن شدد مصعب الحصار عليه، فخاض معركة غير متكافئة انتهت بمقتله واستيلاء مصعب على الكوفة



القضاء على خلافة ابن الزبير

كانت الأجواء السياسية في المدينة غير مستقرة ويشوبها الكثير من المعارضة والسخط على بني أمية، كان مبتدأ الخلاف بين أهل المدينة وبني أمية عندما قام معاوية بن أبي سفيان بأخذ البيعة لابنه يزيد، فقد عارض الكثير من أبناء الصحابة هذه البيعة لإحساسهم بانتهاء العهد الراشدي المبني على الشورى، وزاد الأمر سوء مقتل الحسين بن علي في كربلاء، قام بعد ذلك وفد من أهل المدينة بزيارة ليزيد بن معاوية، وعلى الرغم من أنهم فقدموا عليه ولم يسألوه حاجة إلا قضاها، إلا أنهم رجعوا المدينة ذامين له، مجمعين على خلعه. عندما وصل خبر مقتل الحسين إلى الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد، وبدأ بأخذ البيعة لنفسه من الناس في مكة ، وبعد أن كَثُر الحديث في المدينة عن يزيد، أرسل يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة يحذرهم الفتنة والخروج عن الطاعة، ويذكرهم الطاعة، فأبوا عليه، ثم أعلنوا خلع يزيد، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي يزيد، ثم حاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، وكان عددهم حوالي الألف شخص. فلما علم يزيد بن معاوية بذلك أرسل إليهم جيشًا عليه مسلم بن عقبة المري، وأوصى إن حدث له حدث فالأمير من بعده الحصين بن نمير السكوني، وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش حتى وصل إلى المدينة فأمهل أهلها ثلاثة أيام فأبوا إلا القتال، وكان عليهم: عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان الأشجعي، وعبد الرحمن بن زهير بن عوف الزهري ابن أخي عبد الرحمن بن عوف،

وكان مجيء مسلم عن طريق الحرة الشرقية، ووقعت معركة بين الجيشين سميت وقعة الحرة وكانت في أواخر ذي الحجة من سنة 63 هـ، قتل في هذه الوقعة أكثر سادة أهل المدينة من الصحابة وأبناء الصحابة، واستحلت المدينة من قبل الجيش الأموي ثلاثة أيام. عندما انتهى مسلم بن عقبة المري من المدينة اتجه بجنده نحو مكة يريد عبد الله بن الزبير، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي، لم يقطع مسلم مسافة بعيدة عن المدينة حتى مات، فتولى أمر الجند بعده الحصين بن النمير السكوني حسب وصية يزيد بن معاوية فسار إلى مكة، فقاومه ابن الزبير، واستمر القتال شهري محرم وصفر من سنة 64 هـ وفي أوائل ربيع الأول رميت الكعبة بالمنجنيق، ثم جاءهم نعي يزيد في 14 من ربيع الأول سنة 64 هـ، انصرف على أثره جيش الشام إلى بلدهم تاركين الحجاز لولاية ابن الزبير. بعد وفاة يزيد دان الحجاز لعبد الله بن الزبير، ثم دعا لنفسه بالخلافة، ثم أخذ يتوسع حتى ضم إليه بلاد المسلمين كلها إلا دمشق وجزءا من الأردن، وبايعه في أول الأمر رؤوس الخوارج ، وكذلك بايعه المختار الثقفي، وأُخرج بنو أمية من المدينة إلى الشام، فاجتمعو إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد، ودعي لابن الحكم بالخلافة فبايعه أهل دمشق، ثم توسع من دمشق فضم أرجاء بلاد الشام ومصر

أدى زوال خطر المختار الثقفي من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير. أدرك عبد الملك أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حكما إلى إسقاط النظام الزبيري كاملاً، لذلك خرج عبد الملك على رأس جيش كبير إلى العراق، وكان ذلك بعد أربع سنين من القضاء على المختار. وكان عبد الملك قد أشار عليه بعض أمرائه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشا فأبى، وقال: «لعلي أبعث رجلا شجاعا لا رأي له، أو من له رأي ولا شجاعة له، وإني أجد من نفسي بصرا بالحرب وشجاعة، وإن مصعبا في بيت شجاعة، أبوه أشجع قريش، وأخوه لا تجهل شجاعته، وهو شجاع، لا علم له بالحرب، وهو يحب الدعة والخفض، ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي». فسار بنفسه حتى نزل بلدة مسكن، وجعل على مقدمة جيشه أخاه محمد بن مروان بن الحكم، وعلى ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية، وزحف مصعب نحو باجميرا وعلى مقدمة جيشه إبراهيم بن الأشتر النخعي، ثم بدأ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وقد قبلوا التخلي عن مصعب والانضمام إلى عبد الملك. كان عبد الملك يسعى لإيجاد مخرج من قتال مصعب، فأرسل إليه رجلاً من كلب وقال له: «أقرئ ابن أختك السلام – وكانت أم مصعب كلبية – وقل له: يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائي إلى نفسي، ويجعل الأمر شورى». لكن مصعب رد عليه بقول: «السيف بيننا». ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد بن مروان ليقول له: «إن ابن عمك يعطيك الأمان».

فقال مصعب: « إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا». ثم وقعة المعركة وأمد مصعب قائده إبراهيم بن الأشتر بعتاب بن ورقاء الرباحي، وهو من الذين كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس، فلما انهزم ثبت ابن الأشتر فقتل، ثم تخلى أهل العراق عن مصعب حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال، وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم ي قاومون أعداءه، فاستقتل وطمن نفسه وقال: «لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من إلقائه يده، ومن الذلة لعبيد الله بن زياد». وظل يقاتل حتى قتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق في شهر جمادى الآخرة سنة 72 هـ، فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: « واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملْك عقيم». وبمقتل مصعب عادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية، وعين عبد الملك أخاه بشر بن واليا عليها، وقبل أن يغادرها أَعدَّ جيشًا للقضاء على عبد الله بن الزبير في مكة



لم يتريث عبد الملك كثيرا وأسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي لمواجهة عبد الله بن الزبير، وكان سبب تعيين الحجاج دون غيره أن عبد الملك لما أراد الرجوع إلى الشام قام إليه الحجاج بن يوسف فقال: «يا أمير المؤمنين إني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثني إليه وولني قتاله». فحاصر الحجاج مكة في عشرين ألفاً من جند الشام، فنصب المنجنيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك، وكان مع الحجاج قوم قدموا عليه من أرض الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق، فقتلوا كثير من أهل مكة، وكان معه خمس مجانيق، فألح عليها بالرمي من كل مكان، وحبس عنهم الميرة فجاعوا، وكانوا يشربون من ماء زمزم، وأخذت الحجارة تقع في الكعبة، وكانت الحرب سجال يكر جيش الشام على ابن الزبير، فيشد عليهم، وكان ابن الزبير يقول في القتال: «خذها وأنا ابن الحواري»، وقيل لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح، فقال: «والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعا، والله لا أسألهم صلحا أبدا». لما اشتد الحصار أخذ أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بالأمان ويتركون ابن الزبير، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف، فأمنهم، وقل أصحاب ابن الزبير، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله ابن الزبير فأخذا لأنفسهما أمانا من الحجاج فأمنهما، ودخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، فما رأيك، فقالت: «يا بني، أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه، فقد قتل عليه أصحابك،

ولا تمكن من رقبتك، يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين، وإلى كم خلودكم في الدنيا، القتل أحسن». فدنا منها وقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: « فانظري يا أماه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضا ربي عز وجل، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني». فقالت أمه: اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك .انتهى الحصار الذي استمر ستة أشهر وسبعة عشر يوما، بمقتل عبد الله بن الزبير ودخول الحجاج مكة وفرض سيادة بني أمية على الحجاز في السابع عشر من جمادى الأولى عام 73 هـ الموافق692 م .وبهذا انتهت خلافة ابن الزبير التي استمرت تسع سنوات، وتوحد العالم الإسلامي تحت طاعة عبد الملك بن مروان الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين .

التغلب على الخوارج

الخوارج هم فرقة خرجت على رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب، وكان خروجهم هو علة تسميتهم بهذا الاسم، حيث قال أبو الحسن الأشعري» :والسبب الذي سموا له خوارج خروجهم على علي لما حكم .«ظل الخوارج يتتابعون في الخروج بعد الإمام ع لي وخلال الحكم الأموي، وظل حالهم على نحو ما كانوا عليه خلال خلافة علي، ولما استتب الأمر لمعاوية واجتمعت عليه الكلمة كان الخوارج قد اشتعلت جذوتهم وثبت في أذهانهم فكرة الخروج على بني أمية وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، فأخذوا في التجمع والتربص للخروج في أي فرصة كانت، إذ كان معاوية في نظرهم مغتصبا للحكم لا شك في قتاله.

في فترة ولاية عبد الملك بن مروان أصبح الخوارج هم القوة التي بقيت خارج نطاق الصراع بينه وبين ابن الزبير، وظلوا يعارضون بني أمية لأنهم اعتبروهم مغتصبين للخلافة، كما كان لحالة الاضطراب السياسي التي شهدها العالم الإسلامي وسياسة الحجاج القاسية في العراق دور كبير في تشجيعهم على التمرد على خلافة بني أمية. كان أول موقف سياسي منظم اتخذه الخوارج هو التحالف مع عبد الله بن الزبير في مكة، لكن لم يلبث هذا التحالف أن انفرط بعد أن تبين لهم أن ابن الزبير يخالفهم الرأي، فغادروا مكة، وانقسموا إلى عدة فرق نتيجة وقوع صراعات داخلية بين صفوفهم تعود إلى اختلافات سياسية وعقائدية وقبلية، وأشهر فرق الخوارج التي نشأت في تلك الفترة الأزارقة والصفرية والنجدات .

استغل نافع بن الأزرق الأوضاع السياسية المتردية التي كانت تمر بها الخلافة الأموية، فبدأ نشاطه العسكري المنظم، واستطاع الاستلاء على البصرة، فجبى خراجها ونشر فيها عماله، لكنه لما علم باتفاق البصريين على التصدي له، اكتفى بإخراج أنصاره من السجون وغادر البصرة متوجها إلى الأهواز، حيث أصبحت منطلق وقاعدة هجماته. قُتل نافع بن الأزرق في إحدى حملاته على البصرة عام 65 هـ فخلفه عبيد الله بن الماحوز، في هذا الوقت عهد ابن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة بقتال الخوارج، فتمكن من طردهم من الأهواز وقتل ابن الماجوز. لما دخل العراق تحت سيادة عبد الملك بن مروان استعاد الأزارقة قوتهم واستعادوا السيطرة على الأهواز، وأصبحوا يشكلون خطرا مباشرا على البصرة والمناطق المجاورة لها. قام عبد الملك بن مروان بتعيين المهلب بن أبي صفرة لمحاربة الخوارج، بعدما استثناه من العقاب الذي أنزله بأعوان ابن الزبير، فأظهر المهلب إخلاصا في حربه للخوارج الأزارقة، وتمكن بعد سلسلة طويلة من المعارك معهم والتي دامت ثلاث سنوات من القضاء عليهم وذلك عام 78 هـ.

في الوقت الذي كان فيه الخوارج الأزارقة يهددون البصرة، كان الخوارج الصفرية يهددون الكوفة، وكانت هذه الفرقة تنسب إلى زياد بن الأصفر، وكانت نقطة انطلاقهم وقاعدة عملياتهم الموصل، وتمكنوا عام 76 هـ من اجتياح العراق من الموصل حتى الكوفة مرورا بالمدائن وخانقين، بعد أن تغلبوا على جيوش الأمويين التي كا نت تتصدى لهم. أحس عبد الملك بن مروان بأن القوى العراقية أصبحت غير قادرة على التصدي للصفرية، فسخر قوى من أهل الشام للتصدي لقوى الخوارج، وعين الحجاج بن يوسف قائدا لعمليات التصدي والمطاردة، وتمكن بعد سلسلة من المعارك من التغلب عليهم،

وكان آخر المعارك التي دارت بين الطرفين معركة نهر الدجيل عام 77 هـ، حيث لم يصمد فيها الخوارج بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم، وانسحب بمن معه عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر، وكان شبيب أول المنسحبين فغرق وهو يعبر النهر. شكل موت شبيب نقطة تحول هامة في حركة الخوارج الصفرية، لأن خليفته مسلم البطين لم يكن له الحماس نفسه بالرغم من استمراريته لتحدي الدولة، لكن سرعان ما ألقي القبض عليه وقتل بأمر الحجاج، فطلب الصفرية الأمان فمنحوا إياه.

هاجم خوارج اليمامة بقيادة نجدة بن عامر الحنفي البحرين ومناطق أخرى على الشريط الساحلي الشرقي لشبه الجزيرة العربية، فاشتدت شوكتهم. عندما دخل العراق في سيادة ابن مروان تصدى لخطر خوارج اليمامة، وكانوا بقيادة أبي فديك عبد الله بن ثور، فأمر بحملة عسكرية ضدهم في المشقر من بلاد البحرين، دارت الدائرهم عليهم وقتل أبو فديك واضطر أتباعه للتسليم لبني أمية، وعلى هذا الشكل سقط خوارج اليمامة ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة

القضاء على ثورة ابن الأشعث

تَعد ثورة عبد الرحمن بن الأشعث إحدى أهم الحركات المناوئة ضد الحكم الأموي. كان ابن الأشعث زعيم قبيلة كندة وأحد زعماء وسادات الكوفة، واستطاع استغلال العداء الكبير الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية، وأشعل به حرب كانت إحدى أخطر الحروب التي واجهة عبد الملك بن مروان. بدأ الحجاج في التفكير في الفتوحات الخارجية بعد قضائه على الخوارج،

وكان رتبيل ملك كابل قد هزم جيشاً أُرسل من العراق في عام 79 هـ بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة، وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في عبد الملك بن مروان الذي كلف واليه في العراق الحجاج بإرسال جيش آخر لتأديب رتبيل. أعد الحجاج جيشاً كبيرا وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث الذي لم تكن علاقته به جيدة، وعينه حاكما على سجستان وأمره بإخضاع رتبيل. في عام 80 هـ اتجه الجيش بقيادة ابن الأشعث باتجاه سجستان، وهاجم معاقل رتبيل الذي انسحب أمامه، إلا أنه لم يتمك ن من إخضاعه نظرا لطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة، وقام ابن الأشعث بالتوقف عن مطاردة رتبيل والتراجع إلى بست وهي إحدى مدن سجستان، وأخبر الحجاج بهذا القرار. لم يكن الحجاج راضيا عن توقف العمليات العسكرية ضد رتبيل، وأرسل إلى ابن الأشعث يأمره بالزحف وراء قوات رتبيل وهدده بالعزل إذا خالف ذلك، شعر ابن الأشعث باهانة كبيرة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب، استشار ابن الأشعث أتباعه في أمر الحجاج فاستقر بهم الرأي على خلع الحجاج، وبايعوا ابن الأشعث وزحفوا باتجاه العراق.

قبل مغادرة سجستان صالح ابن الأشعث رتبيل على أنه إن استطاع أن يزيل الحجاج فليس على رتبيل شيء من الخراج، وإن هزم فعليه منعه، سار ابن الأشعث للعراق، ولما سمع الحجاج بذلك جهز جيوشا وطلب من عبدالملك إمداده، التقى الطرفان في أول معاركهما في تستر واقتتلوا قتالا شديدا انتصر فيه ابن الأشعث ودخل البصرة فبايعه أهلها، لكن الحجاج أعاد الكره انتصر في معركة الزاوية عام 82 هـ، واضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة التي دخلها الحجاج.

قام عبد الملك بن مروان بإرسال وفد لابن الأشعث يحمل عدة اقتراحات لحل القضية منها: عزل الحجاج عن العراق واستبداله بمحمد بن مروان، والمساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق، وتعيين عبد الرحمن بن الأشعث على أية ولاية يختارها في العراق. لكن ابن الأشعث وقادته رفضوا عرض عبد الملك واعتبروه موقف ضعف، فالتقى الطرفان في وقعة دير الجماجم الفاصلة، اعتمد الحجاج في المعركة سياسة النفس الطويل والمصابرة في المعركة، فصف جيوشه أمام جيوش ابن الأشعث، ونشبت حرب أشبه ما تكون بحرب استنزاف بين الفريقين، وعلى الرغم من أن جيش ابن الأشعث تأتيهم الميرة من الأقاليم من الطعام والعلف وجيش الحجاج في ضيق شديد فقدوا فيه اللحم بالكلية، إلا أن الحجاج صابر في حربه، واستمر صبره حتى انقضت سنة 82 هـ، ودخلت سنة 83 هـ ، والجيشان بينهما مبارزات فردية كل يوم وأحيانا تحمل مجموعة من هذا الجيش على الآخر والعكس، حتى أن جيش ابن الأشعث كسروا أهل الشام بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم، ومع هذا كان الحجاج ثابتاَ في مكانه، وكان يتقدم قليلاً قليلاً، حتى قرر القيام بعمل ينهي به ثورة ابن الأشعث، فأمر جنوده بالحمل مرة واحدة على موضع قوة جيش بن الأشعث وهم كتيبة القراء، وركز هجومه على هذه الكتيبة حتى قتل منهم الكثير، وكان ذلك سبب انهزام باقي جيش ابن الأشعث، الذي اضطرب نظامه واختلت صفوفه وفروا في كل اتجاه. فر ابن الأشعث ومن معه إلى بلاد الملك رتبيل ودخل في جواره وأكرمهم رتبيل وعظمهم. إلا أن الحجاج لم يترك ابن الأشعث وشأنه، وأجبر رتبيل على تسليمه له، ولما علم ابن الأشعث بذلك انتحر بأن القى بنفسه من فوق القصر، وانتهت ثورته بموته .

القضاء على ثورات أُخرى

عمرو بن سعيد الأشدق

لم يكن لعمرو بن سعيد الأشدق حضور في الميدان الإداري والسياسي مطلع العصر الأموي، لكن بدأ ظهوره منذ سعي معاوية إلى مبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فقام والده سعيد بن العاص أثناء ولايته على الحجاز بالعمل على تولية ابنه عمرو ديوان الجند في المدينة، ثم اسند إليه ولاية مكة والطائف، واخذ عمرو في السعي لأخذ البيعة ليزيد في مكة، غير أن والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أظهر تهاونا أمام أبرز المعارضين لخلافة يزيد، وهما: الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن الزبير بن العوام، اللذين رفضا البيعة، وغادرا المدينة المنورة متوجهين نحو مكة المكرمة، وهو ما حمل الخليفة يزيد على عزل الوليد بن عتبة عن ولاية الحجاز، وتولية عمرو بن سعيد إياها، وكان هدفه الرئيس القضاء على أية بادرة للثورة أو التمرد على خلافة يزيد بن معاوية، وأعلن عزمه التوجه إلى مكة المكرمة في حج عام 60 هـ لإلقاء القبض على الحسين وابن الزبير، لكن الحسين اتجه إلى العراق وهناك واجه ابن زيادة ووقعة بينهما معركة كربلاء التي انتهت بمقتل الحسين. بعد وفاة يزيد بن معاوية ثم الوفاة السريعة لابنه معاوية الثاني، شغر منصب الخلافة، وبدأ عمرو بن سعيد بالدعاية لبيعة مروان بن الحكم بالخلافة، اتفق بني أمية في مؤتمر الجابية باختيار مروان بن الحكم خليفة لبني أمية، وخالد بن يزيد وليا للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد. استطاع مروان بن الحكم تدعيم سلطته في الشام وضم مصر، وبدأ بالتخطيط لتوريث الخلافة إلى ابنه عبدالملك، واستطاع ارضاء أطراف البيت الأموي ببيعة عبد الملك،

وبويع عبدالملك بالخلافة مع الوعد بالإبقاء على تسمية عمرو بن سعيد وليا للعهد، لكن عبدالملك أحذ بتهميش عمرو، بينما استشعر عمرو نية عبدالملك بإقصائه عن ولاية العهد، فأعاد مطالبته البيعة بولاية العهد رسميا، إلا أن عبدالملك عزم على مبايعة أخيه عبد العزيز بن مروان رسميا وليا لعهده. فقرر عمرو مواجهة عبد الملك، فانسل من معسكر عبد الملك ا لذي كان معسكرا خارج دمشق لمواجهة ابن الزبير، وتوجه مع بعض أنصاره إلى دمشق، وباشر بالاستعداد لحصار يفرضه عليه عبد الملك بعد أن أيده أهل دمشق والجند الذين بها في تمرده، وأعلن 12 ألف مقاتل فيها ولاءهم له، منهم قوة ضاربة عددها 4 آلاف من أبطال الشام، وحظي عمرو بدعم ومؤازرة بعض وجوه أهل الشام خارج دمشق، لما بلغ عبدالملك أخبار تمرد عمرو بن سعيد، أسرع بالعودة إلى دمشق، وفرض حال وصوله حصارا حول دمشق لقمع تمرده والقضاء عليه. لكن عبد الملك عمد إلى التهدئة والرضوخ إلى مطلب عمرو بعد أن لقي في مواجهته قوة وممانعة، لكن عمرو بقي على تمرده، وبعد جولات من المفاوضات بين الطرفين تم الاتفاق على: أن يكون عبد الملك أمير المؤمنين، وأن يصبح عمرو بن سعيد ولي العهد والخليفة من بعده، وأن يكون أميرا على دمشق، وألا يخرج عامل لعبدالملك إلا ومعه عامل لعمرو بن سعيد، ولا يكتب كتاب إلا كتبه عبدالملك والأمير عمرو بن سعيد، وأن دخل عمرو وليس عبدالملك في مجلسه يجلس عمرو في مجلسه، وإذا جاء عبدالملك يتنحى له عمرو عن صدر المجلس، وعلى أن لعمرو إذا ركب أن يركب في أربعة آلاف، وأن لا يدخل عمرو على عبدالملك حتى يكون مع عمرو رهينة من ولد عبدالملك، وأن يتولى عمرو بيت المال وديوان الجند .

كان عبد الملك يعي خطورة الاتفاق، فأضمار النية على عدم الالتزام به، والتعامل معه كهدنة مؤقتة، تتيح له إنهاء تمرد عمرو، والدخول بقواته إلى مدينة دمشق لاستعادة المبادرة، والشروع في تصفية عمرو وأنصاره قبل وضع الاتفاق موضع التنفيذ، لذا بادر عبدالملك بعد أربعة أيام فقط من دخوله العاصمة دمشق إلى تنفيذ مخططه، فاستدرج عمرو بن سعيد إلى قصره، وعزله عن أنصاره، ثم تولى قتله بعد أن الأمان،وهو القائل: « أنا قاتل عمرو... حق والله لمن قتل عمرا أن يفخر بقتله." قال ابن الكلبي :"كان مروان بن الحكم ولِي العهد عمرو بن سعيد بن العاص بعد ابنه، فقتله عبد الملك، وكان قتله أول غدر في الإسلام".

ظل القيسيون في بداية عهد عبد الملك بن مروان على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم زفر بن الحارث الكلابي، الذي فر إلى قرقيسياء وتحصن بها، وأصبح تحصنه هناك مركزاً لشن الغارات في المناطق المجاورة له. كان عبد الملك بن مروان في هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير، وكان على عبد الملك إذا أراد استعادة العراق أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيساء، فسار إليه في جيشه الذي كان قد جهزه لحرب مصعب بن الزبير، فبدأ بزفر أولًا فحاصره، ولكن رجال زفر أظهروا بطولة وجسارة في الدفاع عن المدينة، وفيهم قال عبد الملك: «لا يبعد الله رجال مضر والله قتلهم لذل وإن تركهم لحسرة .«لجأ عبد الملك إلى المسالمة والمهادنة، وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويحذره من الخروج عليه، وبعد جهود من المفاوضات أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، واشترط عليه أن يظل مخلصا لابن الزبير، وافق عبد الملك على شرط زفر، وأعطاه الأمان هو وابنه وقائده الهذيل بن زفر،

واختتم عبد الملك مصالحة زفر بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث. حرص عبد الملك على على تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية، وجعل من أصحابه زفر بن الحارث وابنه الهذيل وعبد الله بن مسعود الفزاري وغيرهم من زعماء قيس، كما كان من أصحابه حسان بن مالك الكلبي وروح بن زنباع الجذمي ورجاء بن حيوة الكنديوغيرهم من الزعماء اليمنيين، وعدل بين الفريقين في مجلسه وعدل بينهما في وظائفه، فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالبا، بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية .

الفتوحات

لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت شرقي الدولة الإسلامية للمسلمين بالتوسع في فتوحاتهم، وكانت السياسة الخارجية التوسعية على هذه الجبهة هي آخر اهتمامات عبد الملك بن مروان لانصرافه لمعالجة القضايا الداخلية، وكان الجمود هو الطابع العام لسياسة الفتوحات في ذلك الوقت. لكن قوة الدولة سمحت لها بتحقيق بعض الفتوحات وإن لم تكن كبيرة في هذه المرحلة، ولم تنشط فتوحات ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج ولاية خرسانمع العراق عام 78 هـ، فولّى خرسان المهلب بن أبي صفرة الذي غزا مع أبنائه بلاد ما وراء النهر خاصة مدينة كش والختل وريخش، وتابع أبناؤه بعد وفاته سياسة الجهاد والفتوحات، حيث أرسل المهلب جيوش المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد التركمان ابتداء من عام 80 هـ، فعبر المهلب بجيشه نهر سيحون ونزل مدينة كش.

ثم جعل يغزو البلاد غزوا متواصلاً، وركز معاركه على مدن سمرقند وبخارى وبطخارستان وببست. كانت الجيوش مقسمه على عدة قادة فأحد الجيوش كان في مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف، والمهلب على آخر في خمسة آلاف مقاتل، وابنه يزيد بن المهلب على رأس جيش مهمته فتح بلاد الختل، الذي استطاع من تحقيق أهداف حملته واضطر ملك الختل إلى مصالحة يزيد ودفع الجزية له. بعد وفاة المهلب ولى الحجاج ابن المهلب يزيد على خرسان، فقام يزيد عام 84 هـ بفتح قلعة باذغيس بعد أن أحكم حصارها، واستولى على مافيها من أموال وذخائر، ثم عزل الحجاج يزيد بن المهلب وعين أخاه المفضل بن المهلب على ولاية خرسان عام 85 هـ، فولي المفضل البلاد تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذغيس وفتحها، ثم غزا مدينة أخرون وشومان. إلا أن فتوحات المسلمين لم تأخذ مظهرها الجدي والنوعي إلا عندما ولى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهليولاية خرسان عام 86 هـ، وهي نفس السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان

الجبهة البيزنطية :

فقد المسلمون روح المبادرة والقوة أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بالدولة الإسلامية، فانتهز الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأن أبرمها البيزنطيون مع المسلمين،وساق جيوشه لقتالهم فاجتاح بعض بلاد الشام عام 70 هـ الموافق 689م.

في هذه الفترة وقع على الطرف الشرقي للإمبراطورية البيزنطية حادث أثر على سير العلاقات بين المسلمين والروم، كانت هناك جماعات من المردة النصارى في جبال الأمانوس قد ألفوا جيشاً واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجا حدوديا بينها وبين المسلمين في هذه المنطقة، كان المردة بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي يحمون الدولة البيزنطية من هجمات المسلمين ويدافعو ن عن معاقلهم الجبلية المنيعة ضد أي اعتداء خارجي، وكثيرا ما توغلوا جنوبا حتى وصلوا إلى جبال لبنان، وقد ضايقوا المسلمين بما كانوا يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة خاصة المناطق الساحلية، اضطر عبد الملك بن مروان وفقاً للظروف الحالية إلى المهادنة تـ فاديا لحروب جديدة في المنطقة، وللتفرغ للمشاكل الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي، فعقد مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة عام 79 هـ الموافق 689م تعهد الخليفة بمقتضاها بالتالي: أن يدفع مالاً مقدرا للإمبراطور البيزنطي يبلغ ثلاثمئة وخمسين وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمئة وخمسة وستون عبداَ، وثلاثمئة وخمسة وستين جواداَ أصيلاً في مقابل وقف الغارات البيزنطية على الأراضي الإسلامية، وأن تقتسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبيريا، وأن تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقتي جبال لبنان وشمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس في آسيا الصغرى، وأن تستمر هذه المعاهدة مدة عشر أعوام.

كان من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان وشمالي الشام أن قُضي على السور القوي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسمح للمسلمين تجديد غاراتهم على المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثًا. فعادة غارات المسلمين للمشهد العسكري، ونجم عنها فتح قيساريةعام 71 هـ، وبعدها بسنتين كشف عبد الملك بن مرواح عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد أن فرغ من مشاكله الداخليه، عندما قام بضرب الدنانير الذهبية الإ سلامية وأرسلها كجزية بدلًا من العملة البيزنطية، وقد حمل هذا التصرف تحدي للإمبراطور ومقدمة إلى قرب استئناف المسلمين نشاطهم العسكري على الجبهة البيزنطية. في أواخر عام 73 هـ شعر عبد الملك بن مروان أن الدولة استعادت قوتها، فعين أخاه محمد بن مروان واليا على الجزيرة وأرمينيا ليكون القائد في هذه الجبهة، ومنع عبد الملك إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة. في عام 73 هـ هاجم المسلمون آسيا الصغرى في أرمينيا، حيث التقى الجيشان بقيادة الإمبراطور البيزنطي من جهة، ومن جهة أخرى محمد بن مروان، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين وهزم فيها الروم. في حين رد البيزنطيون على هزيمتهم في أرمينيا بغزو مرعش عام 76 هـ، وكان هذا العام هو العام الذي عزل فيه الإمبراطور جستنيان الثاني، وخلفه من بعده الإمبراطور ليونتيوس، حيث استمرت الغارات الإسلامية في عهده. ثم مالبث أن تراجع الاندفاع الإسلامي باتجاه الثغور البيزنطية ابتداء من عام 81 هـ بفعل عاملين: الأول اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام عام 78 هـ، والثاني: قيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام 81 هـ والتي استمرت أربعة أعوام. استغل الإمبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث هذه الأوضاع وكثف نشاطه العسكري وهزم المسلمين عند سميساط وفي منطقة قيليقية عام 84 هـ،

إلا أن عبد الملك بن مروان بعد فراغه من ثورة ابن الأشعث هاجم إقليم قيليقية واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة سيواس، وكانت المعركة بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليه، وبذلك عادت سيطرت المسلمين مجدداً على منطقة أرمينيا، كما فتح المسلمون المصيصة، وبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمئة مقاتل من ذوي البأس، ولم يـ كن المسلمون قد سكنوها من قبل، فبنى مساجدها وعمر دورها.

جبهة أفريقية :

كانت الجبهة الأفريقية المحور الجدّي لسياسة الفتوحات في عهد عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي لإفريقية، وإخضاع البربر لسلطة الدولة. بعد أن هدأت أوضاع الاضطرابات التي عصفت بالدولة الأوموية، وجد عبد الملك بن مروان أمامه متسعا من الوقت ليقوم بعمل كبير في إفريقية ، خاصة أنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي البربري وما يمكن أن يسببه من تهديد للحدود الغربيه للدولة، فعهد إلى زهير بن قيس البلوي بقيادة العمليات العسكرية، وأمره بالقضاء على قائد البربركسيلة ، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون عقب مقتل عقبة بن نافع ، وبتعيين زهير قائدا للجبهة الإفريقية بدأت المرحلة الخامس من مراحل فتوح شمالي إفريقية في الحقبة الإسلامية.

كان زهير بن قيس قد انسحب بالمسلمين من القيروان بعد مقتل عقبة، وظل منتظرا في برقة إلى أن تأتيه الإمدا دات لكي ينهض إلى إفريقية من جديد، ونظرا لأنه صاحب عقبة، فقد وقع الاختيار عليه ليقود الحملة العسكرية الجديدة، وأمده الخليفة عبد الملك بالخيل والرجال والعتاد والمال. سار زهير بن قيس بجيشه إلى القيران سنة 69 هالموافق688 ، وكان كسيلة قد تركها هو ومن معها من البربر والروم، واحتمى بجبل على مقربة منها، فلما وصل زهير لم يدخل المدينة وإنما أقام بظاهرها ثلاثة أيام، إلى أن استراح الجيش استعدادا للمعركة الكبرى، وفي اليوم الرابع التقى الجمعان بالقرب من القيروان على مسيرة يوم منها في معركة كبيرة، حقق المسلمون فيها نصرا كبيرا، فانهزم البربر والروم، وقُتل كسيلة وكثير من كبار أصحابه، وطارد المسلمون فلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة. رجع زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها، وبعد أن تم له من ذلك ما أراد واطمأن إلى أنه لم يعد هناك خطورة لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة، أعلن أنه عائد إلى المشرق ومن أراد من أصحابه. كان الروم بالقسطنطينية فد بلغهم مسير زهير ومعه الجيش كله من برقة إلى القيروان لقتال كسيلة، فاغتنموا الفرصة وخرجوا من جزيرة صقلية في مراكب كثيرة وقوة عظيمة، فأغاروا على برقة، وأصابوا فيها سبيا كثيرا وقتلوا ونهبوا، وأقاموا بها مدة أربعين يوما، وافق ذلك رجوع زهير إلى المشرق فأُخبر بخبرهم، فأمر العساكر بالإسراع والجد في قتالهم، وعجل هو بالمسير ومعه سبعون من أصحابه أكثرهم من التابعين وأشراف العرب المجاهدين، وعندما علم الروم بقدومه أخذوا في الاستعداد للرحيل عن برقة، وفي الوقت الذي وصل زهير فيه إلى ساحل مدينة درنة التي اتخذها الروم مركز لهم، باشر القتال، وتكاثر الروم عليهم، فقلتوا زهير وأصحابه ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية

في عام 74 هـ الموافق693 م وجد عبد الملك نفسه قويا إلى الحد الذي مكنه من استئناف الفتوحات في شمال إفريقية، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة محنتها في الداخل والمتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختيارحسان بن النعمان الغساني قائدا جديدا للجيش الإسلامي في إفريقية، وبذلك بدأت المرحلة السادسة من مراحل فتوح شمالي إفريقية. خرج حسان بن النعمان من مصر أوائل سنة 74 هـ على رأس جيشه، ووصل به إلطرابلس، فانضم إليه من كان هناك من المسلمين، ثم سار إلى إفريقية ودخل القيروان حيث أعد نفسه للغزو. اتبع حسان خطة عسكرية جديدة أساسها مقابلة أعدائه من الروم والبربر كل على حده، حتى يسهل القضاء عليهم، وبدأ بالروم فاتجه بكل قواته إلى قرطاجنة، وهي عاصمة إفريقية القديمة ومصدر المقاومة الثابت، ولم يكن أحد من القادة السابقين قد تمكن من فتحها، فضرب عليها الحصار، وكان بها عدد كبير من الروم، خرجوا للتقال مع ملكهم، فانتصر حسان، وقتل منهم خلقاً كثيرا، وفر الباقون في المراكب إلى جزائر البحر وخاصة نحو صقلية.

بعد هزيمة القرطاجنيين تصدى حسان بن النعمان لتحالف بيزنطي بربري جديد، فقد حاول الروم أن ينتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة، فاجتمعوا في موضع يسمى صطفورة، وأمدهم البربر بعسكر عظيم، فزحف إليهم حسان، وقاتلهم حتى هزمهم، وتمخضت المعركة عن عدد كبير من قتلى التحالف البيزنطي البربري، وتراجع البربر إلى مدينة بونة، ثم انصرف حسان إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه. كان حسان يفكر في أن يتصدى للتجمع البربري الضخم والشرس في منطقة جبال الأوراس في الداخل، بقيادة الكاهنة ديهيا التي تمكنت من تجميع قوي البربر ورئاستها لهم بعد مقتل كسيلة،

وكان حسان قد أدرك أن هذا التجمع له خطورة قصوى، ولا بد من التصدي له، لذلك توجه إليها حسان بجيوشه والتقى معها عند وادي مسكيانه، وانتهى القتال المرير بهزيمة حسان هزيمة كبيرة أدت إلى ضياع كل إفريقية وارتداد المسلمين إلى حدود مدينة قابس، لكن البربر تبعوا حسان وجيشه ولاحقوه حتى خرج من حد قابس، وعلى إثر هذه الهزيمة استرد الروم عاصمتهم قرطاجنة .

كتب حسان إلى الخليفة بخبره بأمر الهزيمة وما ترتب عليها، فعاد الجواب يأمره أن يقيم حيث وافاه، وتأخر وصول المدد من الخليفة لمدة تصل إلى خمس سنوات، وعندما أتم حسان حالة الاستعداد، ووصلته الأمداد من العرب وممن انضم إليه من مسلمي البربر حيث سار إلى الكاهنة، والتقى بها مع جيشها، وتمكن من هزيمتها وقتلها، واقتحم جبال الأوراس عنو ة، وكان من ثمرات النصر أن سارع كثير من البربر يطلبون الأمان ويعلنون الإسلام والطاعة، لكن حسان لم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفاً يكونوا مع العرب مجاهدين، فأجابوه وأسلموا على يديه. في تلك الفترة حاول البيزنطيون استعادة قرطاجة بواسطة أسطول بحري واقتحموها عام 82 هـ إلا أن حسان أخرجهم منها، وحتى يقضي على آمالهم في العودة إليها دمرها تدميرا كاملاً، وبني إلى الشرق منها مدينة إسلامية جديدة بدلاً منها هي تونس .

ولاية العهد

بعد أن استقرت الأوضاع السياسية لعبد الملك بن مروان، وتم الإجماع على بيعته في الدولة الإسلامية، سعى عبد الملك إلى خلع أخيه عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد لتعيين ابنه الوليد بن عبد الملك مكانه. تحدثت المصادر التاريخية عن عزم عبد الملك على نقض بيعة أبيه مروان بن الحكم لأخيه عبد العزيز، وأن عبد الملك كان يلقى الدعم والتأييد لهذه الخطوة من الشخصيات المقربة لديه أمثال روح بن زنباع والحجاج بن يوسف الثقفياللذان شجعاه لاتخاذ هذا القرار .يقول ابن الأثير الجزري» :كان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويبايع لابنه الوليد بن عبد الملك فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذوئيب وقال: لا تفعل فإنك تبعث على نفسك صوت فدخل عليه روح بن زنباع وكان أجل الناس عند عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أول من يجيبك إلى ذلك. قال: نصبح إن شاء الله، ونام روح عند عبد الملك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وهما نائمان وكان عبد الملك قد تقدم إلى حجابه أن لا يحجبوا قبيصة عنه وكان إليه الخاتم والسكة تأتيه الأخبار قبل عبد الملك والكتب، فلما دخل سليم عليه قال: آجرك الله ما كنا نريد وكان ذلك مخالفاً لك يا قبيصة، فقال قبيصة: يا أمير المؤمنين إن الرأي كله في الأناة فقال عبد الملك: وربما كان في العجلة خير كثير رأيت أمر عمرو بن سعيد ألم تكن العجلة فيه خيرا من الأناة». وقال أيضا: « وقيل إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وأوفد في ذلك وفدا فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز: إن رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك،

فأبى فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضا من بعده، فكتب إليه عبد العزيز: إني أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد، فكتب إليه عبد الملك ليحمل خراج مصر فأجابه عبد العزيز: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم ي بلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت أولًا فإن رأيت أن لا تفسد علي بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وتركه، وقال للوليد وسلميان: إن يرد الله أن يعطيكما الخلافة لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك، فقال عبد الملك حيث رده عبد العزيز: اللهم إنه قطعني فاقطعه".

ساهمت وفاة عبد العزيز بن مروان في فتح الطريق أمام عبد الملك لتحقيق أهدافه وسهلت عليه مهمته، فلجأ فور وفاة عبد العزيز إلى أخذ البيعة لولديه الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك بولاية العهد من بعده، وبذلك يكون عبد الملك قد حصر الحكم في نسله. قال ابن الأثير الجزري: «فلما مات عبد العزيز قال أهل الشام: رد على أمير المؤمنين أمره، فلما أتى خبر موته إلى عبد الملك أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسلميان فبايعوا وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وكان على المدينة هشام بن إسماعيل فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حي فضربه هشام ضربا مبرحا وطاف به وهو في تبان شعر حتى بلغ رأس الثنية التي يقتلون ويصلبون عندها ثم ردوه وحبسوه".

الوفاة

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جمع ولده وفيهم مسلمة بن عبد الملك وكان سيدهم، فقال: « أوصيكم بتقوى الله تعالى فإنها عصمة باقية وجنة واقية، وهي أحصن كهف وأزين حلية، وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والفرقة والخلاف فبهما هلك الأولون، وذل ذوو الـ عزة المعظمون، انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون ومجنكم الذي به تستجنون، وأكرموا الحجاج فإنه وطأ لكم المنابر وأثبت لكم الملك، وكونوا بني أم بررة وإلا دبت بينكم العقارب، كونوا في الحرب أحرارا وللمعروف منارا، واحلولوا في مرارة، ولينوا في شدة، وضعوا الذخائر عند ذوي الأحساب والألباب، فإنه أصون لأحسابهم وأشكر لما يسدى إليهم، ثم أقبل على ابنه الوليد فقال: لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك وتحن حنين الأمة، ولكن شمر وائتزر والبس جلدة نمر ودلني في حفرتي وخلني وشأني وعليك وشأنك، ثم ادع الناس إلى البيعة فمن قال هكذا فقل بالسيف هكذا، ثم أرسل إلى عبد الله بن يزيد بن معاوية وخالد بن أسيد. فقال: هل تدريان لم بعثت إليكما، قالا: نعم لترينا أثر عافية الله تعالى إياك. قال: لا، ولكن قد حضر من الأمر ما تريان، فهل في أنفسكما من بيعة الوليد شيء، فقالا: لا، والله ما نرى أحدا أحق بها منه بعدك يا أمير المؤمنين، قال: أولى لكما، أما والله ولو غير ذلك قلتما لضربت الذي فيه أعينكما .«توفي عبد الملك يوم الخميس في منتصف شهر شوال 86 هـ الموافق 9 أكتوبر 705 م بدمشق ، عن عمر بلغ الستين عاما، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وشهرا ونصف من مستهل رمضان سنة 65 إلى منتصف شوال سنة 86. وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتماع الكلمة حوله 13 سنة و 5 أشهر.

إدارة الدولة

فى عهد عبد الملك بن مروان

النظام الإداري

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماما خاصا بشؤون الإدارة في الدولة، وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات. قام عبد الملك بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه وتعريب الإدارة والنقد المالي، وهي ما عرفت في عهده بحركة التعريب، وركز على تطوير ثلاثة أركان رئيسية في إدارة الدولة: دواوين الدولة والولاة والبريد .من الدواوين التي حظيت باهتمام عبد الملك ديوان الرسائل، وازدهر بشكل كبير أثناء ولاية الحجاج للعرق، نظرا للمستجدات الساسية والعسكرية ووجود الكثير من الثورات والخارجين عن الدولة، فكان الخليفة يكتب للحجاج، مما كان له دور كبير في ازدهار ديوان الرسائل والكتابة، وكان الخليفة غالبا ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية، وكان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية، وقد وضحت هذه الرسائل جانب من سياسة الخليفة الإدارية، فوقع يوما كتابا للحجاج كتب فيه: جنبني دماء ابن عبد المطلب فليس فيها شفاء الطلب، ولأهمية الديوان استعان عبد الملك والحجاج بكتاب حاذقون يجمعون بين الخبرة الإدارية وكتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخاطبة، ومن أشهر من استخدمهم عبد الملك :قبيصة بن ذؤيب، وروح بن زنباع الجذامي. أما ديوان العطاء فقد ارتبط بشكل كبير بالنواحي العسكرية والسياسية، ففي عام 69 هـ خرج عبد الملك لقتال مصعب في العراق فتخلف بعض أهل الشام عن الخروج معه،

فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة 70 هـ، كما كان عبد الملك يضطر تحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس جدد في الديوان، كما فعل عندما كثرة هجمات المردة النصارى، إذ أعلن قائده سحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان، كما استخدم عبد الملك سلاح زيادة العطاء ضد ابن الزبير حينما نادى الحجاج في جنده: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك. أما ديوان الجند فتطوره ارتبط لما بدا الجند تقاعسهم عن الخروج لقتال الخوارج، فعين عبد الملك الحجاج على العراق وأمره بأن يعيد تنظيم الجند، وتنظيم العطاء فيه على أساس المقدرة والكفاءة، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله من ديوان الجند في أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، وكان من أشهر من تولى ديوان الجند والخراج سرجون بن منصور، ثم بعد عزله عين عبد الملك سليمان بن سعد الخشني. أصبح ديوان الخاتم في عهد عبد الملك إدارة مستقله، كما أنشأ دار للمحفوظات الحكومية في دمشق. أما ديوان الطراز فأصله التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، تم اتسع مدلول الطراز وأصبح يطلق على المصنع أو المكان الذي تصنع فيه المنسوجات، في العصر الأموي ارتفع المستوى المعيشي لناس، فزادت عنايتهم بالترف، فأنشأ الأمويون عدد من المصانع عرفت بدور الطراز، وأصبحت هذه الدور أساسا لما حدث من نهضة في صناعة النسيج. اعتنى عبد الملك بشكل كبير بالبريد، فأصبح وسيله مهمه لنقل الأخبار والرسائل في العمليات العسكرية وإلى الأقاليم وللولاه، قام عبد الملك ببناء الأميال في الطرقات كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها، وأنشأ طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد، واستخدم عبد الملك البريد في حمل الأشخاص، فأصبح عبد الملك أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، فالبريد في عهده أصبح عصب الدولة، لذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده .

تعريب الدواوين

كان لعبد الملك بن مروان دور كبير في تعريب الدواوين، وكان جل هدفه هو صبغ الإدارة المالية للدولة الإسلامية بالصبغة العربية الإسلامية، مع تمكين المسلمين من الإشراف على الإدارة المالية إشرافًا تاما. كان سير عمل الدواوين في بداية عهد عبد الملك هو أن الإشراف على الدواوين يقع بين أيدي أصحاب البلاد الأصليين الذين يكتبون بلغتهم، وقد اضطر المسلمون إلى إبقاء كتاب الدواوين في وظائفهم بعد أن فُتحت البلاد الجديدة لانشغال الفاتحين بما هو أهم من التنظيم. رصد عبد الملك أموالاً جزيلة وجوائز عظيمة لمن قاموا بترجمة الدواوين ونقل مصطلحاتهم إلى العربية في إطار صبغ الدولة بالصبغة العربية الإسلامية. كان من أهم عوامل تعريب الدواوين هو اتجاه عبد الملك لتعريب الاقتصاد، حيث ضربت العملة الإسلامية الخالصة لتحل محل العملات الأجنبية من: الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي، كما كان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية على الدولة الإسلامية: فمن الناحية السياسية صبغت الدولة الإسلامية بالصبغة العربية، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الكتابة الرسمية للدواوين، وهذا ما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى المسلمين العرب، كما أصبح بإمكان الخليفة الاطلاع على الدواوين والإشراف عليها. أما من الناحية الأدبية فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية، وبدأت تظهر طبقة من الكتّاب المسلمين منذ ذلك الوقت،

إذ كان للكاتب صالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح ما أعظم متنه على الكتّاب، كما أدى تعريب الدواوين لظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من أهتم بالترجمة مثل :خالد بن يزيد بن معاوية فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية .

الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر، وأطلق اسم ديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان، وكان عمر بن الخطاب أول من دون للناس في الإسلام، وكان عبد الملك أول من نقل الدواوين من الفارسية للعربية. تم تعريب الدواوين من اللغتين الرومية والفارسية، حولها من الرومية الكاتب سليمان بن سعد مولة خشين، وحولها من الفارسية الكاتب صالح بن عبد الرحمن مولى امرأة تسمى عتبة من بني مرة. الدواوين التي أمر عبد الملك بتعريبها هي ديوان الجند والخراج والرسائل والخاتم والبريد. تم تعريب ديوان الخراج في العراق عام 83 هـ حيث عهد والي العراق الحجاج بن يوسف إلى صالح بن عبد الرحمن بنقله إلى اللغة العربية، ثم توالت عمليات تعريب الدواوين بعد وفاة عبد الملك، فديوان مصر نقل للعربية سنة 87 هـ في عهد الوالي عبد الله بن عبد الملك بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وقام بعملية التعريب ابن يربوع الفزازي، أما ديوان المشرق فتم تعريبه سنة 124 هـ بعد أمر يوسف بن عمر الثقفي لواليه في خرسان نصر بن سيار الكناني، قام بعملية التعريب السحق بن طليق من بني نهشل

النظام الاقتصادى :

كان من أهم مصادر دخل الدولة الأموية الزكاة والخراج والجزية وخمس الغنائم والصوائف

وقد تفاوتت مساهمة القطاعات الاقتصادية في الدولة الأموية، ولكن كان اقتصاد الدولة يعتمد بصفة أساسية على قطاع الزراعة، الذي اكتسب أهميته من إيراد الأراضي الخراجية، والتي من أهمها أرض السواد بالعراق، لما عرف عنها من خصوبة أرضها، وغزارة إنتاجها، حتى كان خراجها يشكل حوالي 26 % من اجمالي خراج الدولة الأموية. تعرضت بعض هذه المصادر لانحراف في طرق تحصيلها الشرعي من قبل القائمين عليها، ومنها: أن الرسول صالح أهل نجران على 80 ألف درهم، فلما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم فخفضها إلى 72 ألف، فلما تولى معاوية بن أبي سفيان شكوا إليه نفس الشكوى، فخفضها إلى 64 ألف، فلما تولى الحجاج العراق رفعها إلى 72 ألف در هم لاتهامه لهم بمعاونة خصوم الدولة،ومنها أيضا ما قام به المهلب بن أبي صفرة عندما صالح أهلخوارزم على مايزيد على عشرين ألف ألف درهم (عشرين مليون درهم)، فكان يأخذ بدل النقد سلعا عينية لعدم توفر السيولة النقدية لدى أهلها، وكان يأخذ الشيء بنصف قيمته فبلغ مـ ا أخذه منهم خمسين مليون درهم، ولكن لم يكن لهذه الانحرافات تأثير كبير في قوة الاقتصاد للدولة. أما الخراج فقد تدنى كثيرا في عهد ولاية الحجاج على العراق، تتحدث الروايات التاريخية أن الخراج وصل في عهده بين 18 و25 مليون درهم، بعد أن كانت تصل في عهد معاوية بن أبي سفيان إلى 135 مليون درهم. قام عبد الملك بن مروان بمسح أرض الشام والجزيرة لتحديد قيمة خراجها، وكان معياره في التقدير مدى البعد والقرب من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين

فأكثر هي غاية البعد، وما نقص عن اليوم فهو في القريب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأراضي القريبة يزيد عن الأراضي البعيدة بمقدار الضعف. أما نفقات الدولة فقد كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب في عهد عبد الملك هو 3600 درهم سنويا، والحد الأدنى 720 درهم سنويا، وكان مقدار متوسط الدخل المناسب للفرد في عصر عبد الملك بن مروان وبقية الخلفاء الأمويين من بعده ما بين 250 إلى 300 درهم شهريا .في عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغت في العراق :حدها الأدني 1200 درهما، وحدها الأوسط 1600 درهما، وحدها الأعلى 1800 درهما .

مر تطور التجارة الداخلية في عهد عبد الملك بمراحل ضعف بسبب كثرة الفتن والقلاقل والثورات، لكن مع بداية عام 77 هـ بدأت التجارة الداخلية بالازدهار والنمو، وذلك بسبب زيادة السيولة النقدية الداخليه وذلك بإصدار العملة الأسلامية الجديدة، ولحدوث هدوء واستقرار داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية، كما تمت عدة اصلاحات في هذه المرحلة تمثلت في توحيد الكيل والميزان من قبل الحجاج بإقليم العراق، ووجود خدمات لراحة التجار كالفنادق والحمامات داخل الأسواق. أما التجارة الخارجية في عهد عبد الملك بن مروان فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية، ومرت التجارة بين البلدين بمرحلتين من الازدهار والتدهور، فمرحلة النمو والازدهار نشأت من كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية للدولة الأموية، مما خفض حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق، وبالتالي زادت أحجام المبادلات مع البيزنطيين، واعتماد الدولتين على بعضهما البعض،

فكان البيزنطيون يعتمدون كليا على أوراق البردى ، في حين كان الأمويون يعتمدون كليا على النقد الذهبي البيزنطي. أما مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدين فكانت بسبب تزايد اعتماد الدولة في تجارتها مع دول الشرق الأقصى عن طريق الخليج العربي بعد تطور صناعة السفن. قامت الدولة الأموية بتطوير نوعين من الخطوط التجارية لتعزيز تجارتها مع الشرق، الأول عن طريق البر: فبعد تحول بلاد الهند والسندلمظلة الدولة، تحولت التجارة فيهما من تجارة خارجية إلى داخلية، الثاني عن طريق البحر: وذلك بعد تطور إنشاء السفن. من أشهر الصناعات في عهد عبد الملك صناعة المنسوجات، فقد تطورت في عهده وأصبحت لها مصانع خاصة وسميت دور الطراز، بالإضافة لتطور صناعة قطع الرخام وزخرفته. كما تطورت صناعة البردى في مصر، لأن البردى كانت تستخدم قبل ظهور صناعة الورق، وكانت الدولة تشرف إشرافاً مباشرا على الإنتاج .توسعت الصناعات الحربية في عهد عبد الملك بافتتاح دار صناعة السفن في تونس، وكانت نواة الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن، تم نقلهم من دار الصناعة بمصر، وقد تم وضع تنظيم لازم وطريقة إمداد الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المنطقة للقيام بهذه المهمة، ثم قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة فشق قناة بين الميناء والمدينة، وشكلت ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة .

تعريب النقود :

ظلت النقود المستعملة في عصر صدر الإسلام وبدايات الدولة الأموية النقود البيزنطية والساسانية، وتتمثل النقود البيزنطية بصفة عامة في الدينار وهو من الذهب، وفي الفلس وهو عملة من النحاس، وكان على الوجه في كل منها الإمبراطور البيزنطي، وأما النقود الساسانية فتتمثل في الدراخما أو الدرهم وهو من الفضة .عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني للهجرة بشكل كبير ولم تعد معه النقود العربية المستنسخة من النقود الفارسية والساسانية قادرة على مواكبة التطور والاتساع والنمو المطرد، فبدأ التفكير في سك النقود العربية الخالصة التي تبرز الشخصية الإسلامية، وكان لقرار عبد الملك بتعريب العملة عدة أسباب، لكن السبب المباشر هو ما عرف تاريخيا باسم مشكلة القراطيس، أي ورق البردي، وهي أن مصانع البردي في مصر اعتادت أن تبعث بالورق إلى بيزنطية، وقد كتبت عليه بسملة التثليث (الآب والابن وروح القدس (باللغة اليونانية، واستمر هذا التقليد قائما بعد فتح مصر على يد المسلمين، فلما انتنبه عبد الملك إلى هذا الأمر، طلب من عامله على مصر بأن يلـ غي هذا التقليد، وأن يكتب على البردي: قل هو الله أحد، وعندما علم الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني بذلك، غضب وبعث إلى الخليفة أكثر من مرة يطلب منه سحب قراره، وعندما أدرك أن عبد الملك مصمم على موقفه، هدده بأن يصدر دنانير تحمل نقشًا مهينًا للإسلام والمسلمين، فاستشار الخليفة أصحابه، واتخذ في ضوء ذلك قراره التاريخي بسك الدينار الذهبي الإسلامي،

وتحريم تداول الدنانير البيزنطية تحريما كاملاً، فأصدر عام 76 هـ دينارا عربيا متحررا من الصور الساسانية والبيزنطية يحمل كتابات عربية بالخط الكوفي .كان وزن الدينار إسلامي 4.25 جرام، وقطره القائم 20 ملم، وقطره بالعرض 19 ملم وسماكته 1 ملم، ونسبة الذهب فيه كانت 96%، ويظهر فيه الخليفة عبدالملك بن مروان واضعا يده على سيفه، وتم كتابة لا إله إلا الله وحده لا شريك له على الوجه، وكتابة سورة الإخلاص على الظهر، وتم سكه في دمشق،وقد أخذ الدينار الإسلامي بالانتشار التدريجي، وغدا العملة الذهبية الوحيدة في العالم الإسلامي، من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غربا، ووضعت الدولة الإسلامية النظم والقواعد لدعمه وحمايته. كانت النقود التي سكها عبد الملك بن مروان حينئذ ثلاثة أنواع هي: الدينار وأجزاؤه كالنصف والثلث وكانت من الذهب، والدرهم من الفضة، والفلس من النحاس . كما وحد عبد الملك وزن الدراهم، فجعلها ستة دوانيق، لأن الدراهم السابقة التي كانت متداولة في الدولة الإسلامية منها الكبير يساوي ثمانية دوانيق، ومنها الصغير الذي يساوي أربعة دوانيق

قول ابن الجزري في أحداث سنة 76 هـ: «وفي هذه السنة ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام، فانتفع الناس بذلك. وكان سبب ضربها أنه كتب في صدور الكتب إلى الروم: قل هو الله أحد، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع التاريخ، فكتب إليه ملك الروم: إنكم قد أحدثتم كذا وكذا، فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون. فعظم ذلك عليه.

فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فيه، فقال: حرم دنانيرهم، واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى. فضرب الدنانير والدراهم... وكانت دراهم الأعجام مختلفة كبارا وصغارا، وكانوا يضربون مثقالا، وهو وزن عشرين قيراطا، ومنها وزن اثني عشر قيراطا، ومنها وزن عشرة قراريط، وهي أصناف المثاقيل، فلما ضرب الدراهم في الإسلام أخذوا عشرين قيراطا، واثني عشر قيراطا، وعشرة قراريط، فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطا، فضربوا على الثلث من ذلك، وهو أربعة عشر قيراطا، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطا، فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل«

النظام القضائي

كان القضاء في عهد عبد الملك بن مروان استمرارا لما كان عليه زمن من سبقوه من الخلفاء، حيث تخلى خلفاء بني أمية عن مم ارسة القضاء، كما كان في العهدين النبوي والراشدي، وسعوا إلى الفصل بين السلطات، إلا في ثلاثة أشياء أبقاها الأمويون، هي: تعيين القضاة بطريقة مباشرة في عاصمة الخلافة دمشق، والإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم ومتابعة شئونهم الخاصة في التعيين والعزل، والإشراف على التزام القضاة بالسلوك القضائي، ثم ممارسة الخلفاء الأمويين لقضاء المظالم، وقضاء الحسبة .قام عبد الملك بإساهامات تنظيميه في النظام القضائي، فهو أول من أفرد للمظالم يوما، وأوجب أن تقرأ عهود القضاء أي: أن تقرأ أوامر تعيينهم في المساجد الجامع أولًا، ثم يتوجهو ن إلى دار الأمير ليتلى أمامه عهد توليه القضاء. كان من أشهر قضاة عبد الملك أبو إدريس الخولاني ، وكان له المظالم حتى أعفى نفسه، ثم ولى عامر الأشعري ثم عبد الله بن عامر اليحصبي ثم عبد الله بن قيس ثم سليمان المحاربي

مما ثبَّته عبد الملك في نظامه القضائي اقراره بقضاء من سبقه من القضاء والخلفاء وإن كان قد عاداهم، وقد روي أن أبان بن عثمان والي المدينة أرسل لعبد الملك قائلاً: «إن عبد الله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية فما يرى أمير المؤمنين أمضيها أم أردها»، فكتب عبد الملك: «إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ماتناول في الأمر، فإذا أتاك كتابي هذا فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندما يتعسر». قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها أربعمئة دينار حدا أعلى، وكان يجلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين .

تميز القضاء في عصر بني أمية عامةً وعهد عبد الملك بن مروان خاصةً بميزتين، الأولى: أن القاضي كان يحكم بما يوجه إليه اجتهاده، إذ لم تكن هناك المذاهب الأربعة التي تقيَّد بها القضاء فيما بعد، فكان القاضي يرجع إلىالكتاب والسنة للفصل في الخصومات، الثانية: أن القضاء تميز بتدوين الأحكام التي يصدرها القاضي، وهي ميزة لم تكن معروفة في عهد الخلفاء الراشدين، ولعل السبب في ذلك هو عودة المتخاصمين لاستئناف الحكم بإعادة النظر في القضية أو إنكار أحد الخصمين للحكم الصادر. كما تميز النظام القضائي والإداري في عهد عبد الملك بوجود المحتسب على رأس جهة إدارية رقابية نظامية، وهي استمرارية لما كان عليه الوضع في عصر صدر الإسلام. كان المحتسب يتولى مهمة مراقبة الأسواق، وكانت من واجباته في السوق مراقبة الأوزان والمكا ييل والمقاييس نظرا لتعددها في الأقاليم الإسلامية .اجتهد الخليفة عبد الملك في مسألة تطبيق الحدود، فيروى أنه أراد أن يقطع يد طهمان بن عمرو لأنه قطع يد لص، لكن تدخل أم طهمان لدى الخليفة لكي يعفو عنه دفعه للتراجع عن حكمه إكرما لأمه العجوز .

بجانب جهاز القضاء اهتم عبد الملك بجهاز الشرطة، وعين عبد الملك على شرطته عبد الله بن هاني الأودي، ثم استبدله بيزيد بم كبشة السكسكي، ثم عزل الكثير من هذا المنصب، وكان آخر من تولى الشرطه في عهده: كعب بن حامد العنسي. لم تكن مهمة الشرطة الجناة واللصوص، بل مارست عملاً آخر وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية .

الأقاليم

كانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، يرأس كل إقليم أمير يكون تعيينه وعزله من قبل الخليفة، ويملك الأمير صلاحيات واسعة في إدارة إقليمه، وهو الذي يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، وهو المسؤول عن تنظيم الجند وتجهيز الحملات العسكرية، وكان له صلاحية الإشراف على سك النقود. كان بجانب الأمير موظف له أهمية كبيرة وهو صاحب الخراج، فالوالي يدير الشؤون السياسية والإدارية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشؤون المالية. كان تقسيم الأقاليم في عهد عبد الملك بن مروان كالتالي :

بلاد الشام :وهي عاصمة الدولة، وقد قسمت إلى خمسة أجناد وهي: جند دمشق ومركزها دمشق، وجند حمص ومركزها حمص ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين ومركزها قنسرين ومن مدنها حلب ومرعش، وجند فلسطينومركزها اللد، وجند الأردن ومركزها طبرية ومن مدنها عكا .لم يكن عبد الملك يعين واليا خاصا على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، لكنه كان يعين ولاة على الأجناد، وكان جند دمشق تحت إدارة عبد الملك المباشرة.

الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن :يشمل هذا الإقليم عدد من الأجناد والأقاليم ومنها :الحجاز :ففي عام 73 هـ حدث تطور إداري مهم في هذا الإقليم، إذ جمع عبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجاج بن يوسف. كان عبد الملك ينتهج سياسة حكيمة مع أهل الحجاز ، ويلبي ويحسن لهم، وقد استجاب لطلبهم في عزل الحجاج عن الحجاز ، وذلك عام 75 هـ، حيث نقله إلى العراق وعين مكانه عمه يحيى بن الحكم على المدينة، ثم عين أبان بن عثمان بن عفان عام 76 هـ، وفي عام 82 هـ عزل الخليفة أبان عن ولاية المدينة، وقبل سنة 83 هـ ولى مكانه هشام بن إسماعيل المخزومي، فبقي في منصبه حتى توفي عبد الملك. مكة: بعد مقتل ابن الزبير ولى الخليفة ابنه مسلمة بن عبد الملك واليا عليها، وفي نفس السنة جمع عبد الملك للحجاج أعمال الحجاز ومكة واليمن حتى عام 75 هـ، ثم ولى مكانه الحارث بن خالد المخزومي. أواسط الجزيرة العربية: وكانت أهم مناطقهااليمامة، والتي كانت منذ عام 65 هـ مقرا لنجدة بن عامر الحنفي زعيم فرقة النجدات الخارجية، وبعد أن قضى عليه عبد الملك ولى على هذا الإقليم يزيد بن هبيرة المحاربي، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم بن عربي، الذي بقي حتى وفاة عبد الملك. اليمن: في عهد عبد الملك أصبح لليمن والي واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال، ومن أشهر ولاة الخليفة على اليمن محمد بن يوسف الثقفي، وظل في ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة ابن مروان.

العراق والمشرق :كان مركز الإقليم العراق: حيث وجه عبد الملك كل اهتمامه نحوه، واستطاع أن يقضي على ابن الزبير فيها سنة 72 هـ، وبايعه أهل الكوفه وولى عليهم أخوه بشر بن مروان ، ثم فرق العمال على المدن فولى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد الذي فشل في قتال الخوارج في البحرين والعراق، فعزله عبد الملك وجمع العراق لبشر بن مروان، ثم مات سنة 74 هـ فأسند عبد الملك العراق إلى الحجاج.

الولايات التابعة للعراق في شرق الجزيرة العربية: فقد كانت الأجزاء الشرقية المطلة على بحر الخليج تابعة إداريا إلى أمير العراق، ومن أهم أقاليمها البحرين الممتد على ساحل الخليج بين البصرة وعمان. خرسان والمشرق: بعد أن استرجع عبد الملك العراق بدأ بالتخطيط لاسترجاع خرسان، وفي عام 78 هـ ضم عبد الملك ولاية خرسان وسجستان وكل المشرق الإسلامي إلى ولاية العراق للحجاج بن يوسف، فولى الحجاج على خرسان المهلب بن أبي صفرة عام 79 هـ، وعين على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة.

الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان :تقع الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات، وتشمل ذاك الحين ديار ربيعة ومضر وديار بكر، بينما تقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقي للجزيرة الفراتية، وكانتالموصل في عهد عبد الملك جزءا من ولاية الجزيرة الفراتية، أدرك عبد الملك أهمية الجزيرة، فخطط لجعلها ثغرا منيعا لمواجهة الخزر والبيزنطيين، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضي، وأمر بنقل بعض القبائل القيسية إلى هناك، كما نقل بعض من قبائل الأزد وربيعة من البصرة إلى الموصل،

وفصلها عن قنسرين وجعلها بجانب أرمينيا وأذربيجان إقليما إداريا مستقبلاً، وعين على إدارتها محمد بن مروان عام 73 هـ، وأوكل إليه مهمة مقاتلة البيزنطيين والخزر. كانت ولايات الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان والموصل غالبا ما تجمع تحت إمرة أمير واحد.

مصر :كان والي عبد الملك على مصر أخاه عبد العزيز بن مروان، ولم تقتصر مسؤولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط، بل امتدت إلى أفريقيا أيضا، وأصبح المسؤول عن إدارة أفريقيا، فكان يعين عليها الولاة ويعزلهم في بعض الأحيان، كما فعل عام 78 هـ عندما عزل حسان بن النعمان وولى مكانه موسى بن نصير.

أفريقيا :كانت أوضاع إفريقيا الإدارية والسياسية قبل تولي عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية في الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان فسيطر كسيلة على شمال إفريقيا. استطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على الشمال الأفريقي بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية. من أشهر ولاة إفريقيا في عهد عبد الملك:حسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير.

الحركة الأدبية والعلمية

كان عبد الملك بن مروان عاقلا لبيبا، وعالما أديبا، وكان خطيبا معدودا في بني أمية، وكان من عادة عبد الملك أن يحمل خيزرانة في يده وكان يقول: «لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب نصف كلامي». كان عبد الملك بن مروان من أكثر الناس علما وأبرعهم أدبا، يطارح جلساءه حديث الشعر ويجول معهم في نقد الأبيات والمقطعات الشعرية. قام عبد الملك برد الشاعر الاخطل إلى البلاط الأموي وجعله شاعر بني أمية، فأدى عمله هذا إلى اتساع فن النقائض أو الهجاء القبلي بين الشعراء عامة، والأخطل والفرزدق وجرير خاصة.

فن النقائض فن قديم وجد منذ العصر الجاهلي وترعرع حتى وصل إلى عهد بني أمية، وقد توافرت في هذا العهد الأسباب السياسية الاجتماعية والعقلية لرعاية هذا الفن، وجذبت إليه الشعراء. وكان عهد عبد الملك بن مروان يمثل الحاضنة الشرعية لهذا الفن، ومما يذكر أن أحد أهداف تعيين عبد الملك لأخوه بشر ليكون والي العراق، إذكاء نار العداوة والخصومة بين الشعراء . من أمثلة خطابة عبد الملك أنه قام مرة في مكة فقال: «أيها الناس: إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. فمن قال لنا برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا». وبعد مقتل مصعب بن الزبير دخل عبد الملك بن مروان الكوفة ثم خطب في أهلها فقال: « أيها الناس: إن الحرب صعبة مرَّة، وإن السلم أمن ومسرَّة. ولقد زبنتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمنا. أيها الناس: ألا فاستقيموا على سبل الهدى ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلّفونا أعمال المهاجرين والأنصار،

وأنتم لا تعملون أعمالهم. ولا أظنّكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرًّا، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجَّة عليكم إلاّ عقوبة. فمن شاء أن يعود بعد لمثلها فليعد». أوصى عبد الملك أميرا سيره بجيش إلى أرض الروم فقال له: « أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحا اتّجر، وإلاّ تحفّظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة. وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك». وخطب يوما خطبة فيها زهد فقال: « أيها الناس: اعملوا لله رغبة ورهبة، فأنكم نبات نعمته وحصيد نقمته. ولا تغرس لكم الآمال إلاّ ما تجتنيه الآجال، وأقلّوا الرغبة في ما يورث العطب، فكل ما تزرعه العاجلة تقلعه الآجلة. واحذروا الجديدين فإنهما يكران عليكم، إن عقبى من بقي لحوق بمن مضى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى

« ويروى أنه لما اشتد على عبد الملك مرضه وقاربته الوفاه قال: أصعدوني على شرف، فأصعدوه إلى موضع عالي، فجعل يتنسم الهواء ثم قال: «يا دنيا ما أطيبك، وإن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنَّا منك لفي غرور".

كانت بادرة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين النواة التي ساعدت على التوسع في حركة الترجمة في العصر العباسي ، حتى وإن كانت حركة النقل والترجمة في العصر الأموي قائمة على نطاق ضيق، وكانت تعتمد على بعض الأفراد من الخاصة أو بعض الأطباء من الأعاجم .كان لعبد الملك بن مروان دور كبير في تعميم الإعجام في المصاحف، فعندما كُتبت المصاحف في عهد عثمان بن عفان كُتبت خالية من النقط والشكل،

حتى تحتمل قراءتها الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وعندما أرسلها إلى الأمصار رضي بها الجميع، واستمروا على ذلك أكثر من أربعين سنة. خلال هذه الفترة توسعت الفتوح، ودخلت أمم كثيرة لا تتكلم العربية في الإسلام، فتفشت العجمة بين الناس وكثر اللحن. وكان أول من التفت إلى نقط المصحف الشريف أبو الأسود الدؤلي وقال لكاتبه حين بدأ بإعراب القران: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة نقطتين، وقيل إنه جعل للفتح نقطة فوق الحرف، وللضم نقطة إلى جانبه، وللكسر نقطة أسفله، وللتنوين نقطتين. أما نقط الإعجام، فهو ما يدل على ذات الحرف، ويميز المتشابه منه لمنع العجمة، وقد دعت الحاجة إليه عندما كثر الداخلون في الإسلام من الأعاجم، وكثر التصحيف في لغة العرب. اختلفت الآراء في أول من أخذ بهذا النقط، وأرجحها في ذلك ما ذهب إلى أن أول من قام به هما:نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، وذلك عندما أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق أن يضع علاجا لمشكلة تفشي العجمة، وكثرة التصحيف، فاختار كلا من نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر لهذه المهمة، وبعد البحث والتروي، قررا إحياء نقط الإعجام، وقررا الأخذ بالإهمال والإعجام، مثلا الدال والذال، تهمل الأولى وتعجم الثانية بنقطة واحدة فوقية، وكذلك الراء والزاي، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين، أما السين والشين، فأهملت الأولى وأعجمت الثانية بثلاث نقط فوقية لأنها ثلاث أسنان، أما الباء والتاء والثاء والنون والياء، فأعجمت كلها، والجيم والحاء والخاء، أعجمت الجيم والخاء، وأهملت الحاء، أما الفاء والقاف، فإن القياس أن تهمل الأولى وتعجم الثانية، إلا أن الـ مشارقة نقطوا الفاء بواحدة فوقية، والقاف باثنتين فوقيتين أيضا، أما المغاربة فذهبوا إلى نقط الفاء بواحدة تحتية، والقاف بواحدة فوقية.

وكتب هذا النوع من النقط بلون مداد المصحف، حتى لا يشتبه بنقط الإعراب، واستمر الوضع على ذلك حتى نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، حيث قام الخليل بن أحمد الفراهيدي بالإبقاء على الإعجام وتقنين التشكيل، فوضع ثماني علامات: الفتحة، والضمة، والكسرة، والسكون، والشدة، والمدة، والصلة، والهمزة.

نقده الأدبي

عرف خلفاء الدولة الأموية بالنقد الأدبي، ومن أبرزهم الخليفة عبد الملك بن مروان الذي كان ذا خبرة ودراية بالنقد، وكان شاعرا وخطيبا متمكنا، من أمثلة نقده: أن الشاعر جرير مدح عبد الملك، فقال:

لو شِئتُ ساقكم إلي قطينا		هذا ابن عمي في دمشق خليفة

فلما سمعه عبد الملك قال: ما زاد على أن جعلني شرطيا، والله لو قال لو شاء لسقتهم إليه قطينا لسقتهم إليه. ومنها: قال عبد الملك بن مروان لعبد الله بن قيس الرقيات ويحك يا ابن قيس أما اتقيت الله .

ألا قلت قد يعلم الناس ولم تقل قد يعلم الله فقال ابن قيس: قد والله علمه الله وعلمته أنت وعلمته أنا وعلمه الناس. ومنها أن عبد الملك كان يقول للشعراء: يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالبازي، ومرة بالجبل الأوعر، مرة بالبحر الأجاج ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

ولَيلُكُمُ صلاةٌ واقتِراءَ		نهارُكم مكابدة وصوم
فَأَسرَعَ فيكِم ذَاك البلاءَ		ولِيتُم بِالْقُرآنِ وبِالتَزكّي

العمارة والبناء

بناء الكعبة

عندما قتل جيش بني أمية ابن الزبير عام 73 هـ، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويعلمه بما فعل ابن الزبير في بناء الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يقر طول الكعبة على ما فعله ابن الزبير، وأن يعيد الحجر كما كان في عهد النبي، فنقض الحجاج الكعبة وأعاد بناءها كما طلب منه عبد الملك بن مروان. روى مسلم عن حديث عطاء قال: «فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه».

ثم إن عبد الملك صح له حديث عائشة فندم على ما فعل، فقد ورد في صحيح مسلم عن أبي قزعة: «أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين يقول سمعتها تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحجر فإن قومك قصروا في البناء، فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا، قال لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير«

بناء قبة الصخرة

فى عهد عبد الملك بن مروان

قام عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة، حيث بدأ العمل في بنائها سنة 66 هـ685 / م، وتم الفراغ منها سنة 72 هـ691 / م .وقد أشرف على بنائها المهندسان العربيان هما :رجاء بن حيوة وهو من بيسان فلسطين، وكان المسؤول عن التصميم والشكل العام للبناء، ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان وهو من القدس، وكان المسؤول عن النواحي العملية في هندسة العمارة. فكر عبد الملك بن مروان أن يغطي الصخرة المقدسة بنوع من البناء يتناسب وقباب المدينة المرتفعة، وقيل إن عبد الملك بن مروان حين فكر في بناء قبة عالية تغطي الصخرة رصد لبنائها خراج مصر لسبع سنين، وحين أنفقت هذه الأموال على البناء بقي منها مائة ألف دينار، فأمر عبد الملك بن مراون بها جائزة للرجلين المشرفين على البناء وهما رجاء بن حيوة الكندي ويزيد سلام فرفضا قائلين: « نحن أولى أن نزيد من حلي نسائنا فضلاً عن أموالنا فاصرفه في أحب الأشياء إليك»، فأمر عبد الملك بأن يصنع منها صفائح ذهبية تكسى بها القبة من الخارج .ذكر بعض المؤرخين أن عبد الممك لما أمر ببناء القبة أقاموا له قبة صغيرة لطيفة كنموذج لقبة الصخرة، ولها أحد عشر ضلعا من الخارج، وستة أضلاع تحمي القبة الصغيرة، والمعروفة بقبة السلسلة قرب قبة الصخرة، فلما انتهت زارها وقال: «ابنوا قبة أكبر من هذه باثني عشر ضعفاً وانقصوا من الأضلاع»،

فتم تجهيز وإعداد الشكل لقبة الصخرة بأضلعها الثماني، ثم بدء العمل بها، وقد كانت قبة السلسلة بعد بنائها المكان الرئيسي للإشراف على بناء قبة الصخرة. يأخذ تخطيط قبة الصخرة شكل مثمَّن خارجي، به أربعة مداخل محورية يتقدم كلاً منها سقيفة محمولة على أعمدة، يليها مثمن داخلي مكون من دعائم رئيسة، وبين كل دعامتين عمودان يكونان ثلاثة عقود تكون في مجموعها أربعة وعشرين عقداً داخل التثمينة، ودائرة من الأعمدة والأكتاف مكونة من أربعة دعائم كبيرة بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة تحمل ستة عشر عقداً مدببا، وقد صنعت القبة من الخشب وغطيت من الخارج بطبقة من الرصاص، ويوجد بالرقبة 16 نافذة، وقد أحاطت الدائرة بالصخرة حتى يمكن الطواف حولها .وصف ابن كثير في كتابه البداية والنهاية مدى جمالية المسجد بقوله: «ولم يكن يومئذ على وجه الارض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس، بحيث إن الناس التهوا بها عن الكعبة والحج، وبحيث كانوا لا يلتفتون في موسم الحج وغيره إلى غير المسير إلى بيت المقدس، وافتتن الناس بذلك افتتانا عظيما، وأتوه من كل مكان، وقد عملوا فيه من الاشارات والعلامات المكذوبة شيئا كثيرا مما في الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووادي جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك، وإلى زماننا، وبالجملة أن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الارض بهجة ومنظرا، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شئ كثير ، وأنواع باهرة".

بناء واسط

عندما عيَّن عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي أميرا علي العراق سنة 75 هـ الموافق694 م، اضطر الحجاج للتنقل كثيرا بين المصرين الكوفة والبصرة، حسبما تقتضيه الظروف الحربية والسياسية آنذاك، وكان ذلك أحد الأسباب التي دعت الحجاج إلي التفكير في بناء مدينة تكون مقرا لادارة ولايته الواسعة يطمئن بها علي نفسه وأعوانه، ويجمع فيها العناصر الموالية له وفي مقدمها العناصر الشامية، ليتمكن من اخماد كل ثورة تقوم عليه في المستقبل، وقد ذكر أبو الحسن بحشَل سبب بناء المدينة بقوله: «ولي عبد الملك بن مروان الحجاج العراق فأقام بها سنة فقال: أتخذ مدينة بين المصرين أكون بالقرب منهما، أخاف أن يحدث في أحد المصرين حدث وأنا في المصر الآخر فمر بواسط القصب فأعجبته، فقال: هذا وسط المصرين.«وذكر الطبري سببا آخر لبناء مدينة واسط يتمثل في رغبة الحجاج تجنب الاحتكاك بين جند الشام وسكان المدن العراقية البصرة والكوفة. جاء اختيار موقع مدينة واسط بعد بحث وتدقيق واسعين في الأرض الواقعة بين المصرين، ذكر ياقوت الحموي» : أن الحجاج قال لرجل ممن يثق بعقله: امض وابتغ لي موضعا في كرش من الأرض ابني فيها مدينة وليكن علي نهر جار، فاقبل ملتمسا ذلك حتي سار إلي قرية فوق واسط بقليل يقال لها واسط القصب، فبات بها واستطاب ليلها واستعذب انهارها، واستمرأ طعامها وشرابها فكتب إلي الحجاج بالخبر ومدح له الموضع، فكتب اليه: اشتر لي موضعا ابني فيه مدينة، واشتري الحجاج موقع المدينة من صاحبها وهو أحد دهاقين الفرس من داوردان بعشرة الآف درهم،

ووعد بأن يرعي جواره ويقضي ذمامه ويحسن اليه». موقع المدينة يقع علي نهر دجلة، ويتوسط بين مدن الكوفة والبصرة والمدائن والأحواز ، ويقع علي طرق التجارة النهرية والطرق البرية. أما سبب تسميتها بهذا الاسم، فهو لأن الموضع الذي اختاره الحجاج لبناء مدينته كان يسمي واسط القصب فسميت نسبة لذلك، وهذا مايذكره ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، كما ذكر أن أرضها كانت أرض قصب لذلك سميت واسط القصب .

اختلفت المصادر في تحديد سنة بناء المدينة، إلا إأن معظمها يجمع علي أن عملية البناء تمت بين الأعوام 83) هـ 86 - هـ (705 - 702 / أي في أواخر حكم عبد الملك بن مروان الذي استأذنه الحجاج في إنشاء المدينة.[98]بعض الباحثين يرجح بناء مدينة واسط سنة 83 هـ الموافق 702م معززين رأيهم بما وصلهم من مسكوكات فضية مضروبة بمدينة واسط، حيث تعد هذه المسكوكات وثائق أساسية، ويحتفظ المتحف العراقي بدرهم فضي مضروب بواسط سنة 83 هـ، كما ويحتفظ بدرهم آخر ضرب سنة 84 هـ، وهذا أحد أدلة أن بناء المدينة كان قبيل سنة 83 هجرية، وهي خامس مدينة تمصرت في الإسلام بعد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وثالث مدينة في العراق بعد البصرة والكوفة. كانت واسط تقع علي الجانب الغربي لنهر دجلة يقابلها علي الجانب الشرقي مدينة قديمة تسمي كسكر ، وقد ربط المدينتين جسر علي كل جانب من جانبي النهر ، وكان يحيط بالمدينة سور وخندقان. بني الحجاج في داخل المدينة قصره الذي اشتهر بقبته الخضراء العالـ ية، وأقيم القصر فوق مساحة من الأرض مربعة الشكل أبعادها أربعمئة ذراع في أربعمئة ذراع، وكان له أربعة أبواب كل منها يفضي إلي طريق عرضه ثمانون ذراعا. وإلي جانب القصر بني المسجد الجامع،

وكانت مساحته مائتي ذراع في مائتي ذراع، وجعل علي مقربة من القصر سوقًا كبير، وكان في الجانب الغربي سجن الحجاج المعروف بالديماس. بلغت تكاليف بناء مدينة واسط مبالغ كبيرة، ذكر بحشل: «إن ما أنفقه الحجاج قد بلغ خراج العراق لمدة خمس سنين، وإن كان التقدير مبالغًا به إلا أنه يدل علي أن بناء مدينة واسط قد كلف أموالا كثيرة»، في حين قال ياق وت الحموي: انفق الحجاج علي بناء قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم، فقال له كاتبه صالح بن عبد الرحمن هذه نفقة كثيرة وإن احتسبها لك امير المؤمنين وجد في نفسه فقال فما نصنع، قال: الحرب لها أجمل، فاحتسب منها في الحروب بأربعة وثلاثين ألف ألف درهم، واحتسب في البناء تسعة آلاف ألف». بعد أن سكن الحجاج مدينته الجديدة، أسكن إلي جانب جنده الشامي مجموعات أخري من السكان العرب من وجوه أهل البصرة والكوفة. كانت واسط في عهد عبد الملك والحجاج مركزًا لادارة العراق والمشرق الإسلامي، وقام الحجاج وخلفائه من بعده بإنشاء دار لضرب المسكوكات والنقود. ظلت المدينة في توسع وازدهار حتي هجرت وانتهت، بسبب تعرضها للغارات الخارجية وتحول مجري نهر دجلة الغربي عنها إلي مجراه الشرقي الحالي في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، حيث هجرها سكانها وتحولت بعد ذلك إلي انقاض وبقايا خرائب .

بناء تونس :

قام حسان بن النعمان الغساني عام 82 هـ ببناء مدينة تونس لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة الذي حدث عام 78 هـ .بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة. اختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريا ومركزا للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب، واستعان بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناء على توجيه الخليفة عبد الملك. كان الهدف الرئيسي من بناء تونس وضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على ساحل إفريقية، وكان الحل المتاح أما المسلمين هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي، فأوعز عبد الملك بن مروان لشقيقه والي مصر عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من المهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية. سعى حسان عند بنائه المدينه لإيجاد حياة اجتماعية قادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع، ودار الإمارة، وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين، وتنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي، وصارت المدينة معسكرا حربيا ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات.

خلال عهد الخلافة العباسية ازدهرت مدينة تونس وكانت جزءا من عدة دول إسلامية مستقلة تعاقبت على حكم المنطقة، من أهمها الأغالبة والفاطميون والمرابطون والموحدون، ثم أصبحت عاصمة للدولة الحفصية في القرن السابع الهجري ، وكانت مركزا تجاريا مهما في المتوسط وأوروبا. في 1591 حكم العثمانيون تونس، ثم حكمها البايات (ولاة عسكريون) بطريقة شبه مستقلة عن العثمانيين، وفي تلك الفترة ازدهرت المدينة وشكلت ممرا تجاريا كبيرا ومركزا للتحكم في الملاحة البحرية وحماية السواحل .

أما عن قرطاجنة التي استعادها الروم سنة 78 هـ بعد حملة حسان بن النعمان الأولى، فقد سار إليها حسان، وطرد منها الحامية الرومية التي استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا، واستولى على المدينة عنوة وقام بتخريبها حتى صارت كأمس الغابر كما عبر المؤرخ ابن عذارى .ولم يعد لها بعد ذلك أثر يذكر، حتى جاء الفرنسيين عندما احتلوا تونس، فأحيوها من جديد في صورة ضاحية لمدينة تونس الحالية، وعرفت باسمها الفرنسي، وهو قرطاج وقد أصبحت الآن جزءا من مدينة تونس .

عهد يزيد بن عبد الملك

يزيد بن عبد الملك الأموي القرشي ويلقب يزيد الثاني ولد سنه 71 هـ .ولي الخلافة بدمشق بعد عمر بن عبد العزيز سنة 101 هـ وهو ابن تسع وعشرين سنة في قول هشام بن محمد بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك.

خلافته

قال "عبد الرحمن بن زيد بن أسلم": لما ولى يزيد الخلافة قال سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز فأتى بأربعين شيخا فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب وقالابن الماجشون لما مات عمر بن عبد العزيز قال يزيد والله ما عمر بأحوج إلى الله مني فأقام أربعين يوما يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ثم عدل عن ذلك وقال "سليم بن بشير": كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك حين أحتضر سلام عليك أما بعد فإني لا أراني إلا لملبي فالله الله في أمة محمد فإنك تدع الدنيا لمن لا يحمدك وتقضي إلى من لا يعذرك والسلام.

كانت أيامه أيام فتوحات وغزوات، أعظمها حرب الجراح الحكمي في بلاد ما وراء النهر مع الترك واللان وأنتصر عليهم. وفي سنة 102 هـ، خرج يزيد بن المهلبعلى الخلافة فوجه إليه مسلمة بن عبد الملك فهزم يزيد وقتل وذلك بالعقير موضع بقرب كربلاء قال الكلبي: نشأت وهم يقولون ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين ويوم العقير بالكرم.

وكان يزيد بن عبد الملك من أصحاب المروءات مع إفراط في طلب الملذات، فقد هام حبا بجاريتين من جواريه، إحداهما تدعى حبابة والأخرى تسمى سلامة وقد تتيم بحب حبابة وبنى لها قصرا جميلا بدمشق وزينة وجهزه بأفضل الزينة واشتهرت قصة حبابة أيما شهرة في التاريخ، ومات بعد موتها بأيام يسيرة يقال سبعة عشر يوما. ولا يعلم خليفة مات عشقا غيره. وقد ذكرت روايات غير مؤكده عنه بما لا يليق بسبب عشقه للجاريات، وإلى ما ذلك غير أن بعض المؤرخين ومنهم المؤرخ ابن تغري بردي صاحب كتاب (النجوم الزاهرة) يرفضون هذه الروايات ويردونها إلى نقمة العباسيين المتمردين على الأمويين وخاصة في هذه الفترة من أواخر حكم الأمويين، وأنها مدسوسة ومغرضة.

عدالته ونزاهته

خطب يزيد بن عبد الملك بالناس قائلا (ايها الناس انه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق انما الطاعة لله فمن اطاع الله اطيعوه ما اطاع فأذا عصى أو دعي إلى معصية فهذا أهل ان يعصى ولايطاع أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته). وقد ارسل في نفس هذه السنة إلى من كان تحت إمرته في العراق)يوسف بن عمر) وأحضره إلى دمشق وعندما وقف أمامه وبين يديه وكان ذو لحية طويلة فأخذ بلحيته ووبخه وانبه وعزله من منصبة بسبب عدم عدله وبسبب حنقه على اليمانية وهم قوم خالد بن عبد الله القسري، وهذا التصرف وهذه الخطبة ليزيد بن عبد الملك دلالة على عدالته في الحكم، ونزاهته وبعده عن الشبهات.

الثورات الداخلية في عهده

حدث في عهده عدد من الثورات ومنها :

- ثورة يزيد بن المهلب وأنتهت بمقتل ابن المهلب في معركة العقر
- حركات الخوارج
- حركة شوذب
- حركة مسعود العبدي
- حركة مصعب الوالبي
- حركة عقفان
- حركة شريم اليهودي

وفاته

مات يزيد في أواخر شعبان سنة 105 هـ، ويقال بأنه مات وعمره أربعة وثلاثون عاما، وفي روايات أخرى غير ذلك ودام حكمه أربعة سنوات ونيف من الأشهر. قيل إنه مات بحوران ونقل إلى دمشق وصلى عليه ابنه الوليد وكان عمره خمسة عشر عاما وأخوه هشام بن عبد الملك وتذكر الروايات إنه حمل على أعناق الرجال ودفن بين باب الجابية في دمشق.

له من الأولاد:

- الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، خليفة من خلفاء بني أمية.
- الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، قُتِل في يوم مجزرة أبي فطرس على يد عبد الله بن علي العباسي الذي قُتِل لاحقاً على يد ابن أخيه الخليفة أبو جعفر المنصور.
- يحيى بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- داود بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- درج بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، قُتِل في يوم مجزرة أبي فطرس على يد عبد الله بن علي العباسي الذي قُتِل لاحقاً على يد ابن أخيه الخليفة أبو جعفر المنصور.
- عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أُمه سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن الصحابي والخليفة عثمان بن عفان الأموية.
- أبو سفيان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- هاشم بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

- العوام بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- درج الثاني بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.
- عاتكة بنت يزيد بن عبد الملك بن مروان، تزوجها ابن عمها محمد بن الخليفة الوليد بن عبد الملك.

ذروة اتساع الدولة الأموية

توفيَّ يزيد بن عبد الملك في أواخر شهر شعبان من سنة 105 هـ (يناير سنة 724 م)، وكان قد وصَّى بالخلافة من بعده لأخيه هشام، فابنه الوليد. كان هشام بن عبد الملك - على عكس أخيه الذي سبقه – خليفة قوياً ذا خبرة وحنكة سياسية، وأدار الدولة بكفاءة عالية، وقد تمكن من الحفاظ على استقرارها طيلة عهده الطويل. وعلى الرُّغم من عدم حدوث فتوحات كبيرة في عهده بضمِ أراض جديدة للدولة – كتلك في عهد الوليد – فقد كانت الغزوات واسعة جداً، وكان القتال محتدماً على جبهة الشرق في السند وما وراء النهر والشمال في الأناضولوالقوقاز والغرب في الأندلس وجنوب غالة) فرنسا .(وعلى الرُّغم من ذلك فقد شهد عهد هشام بلوغ الدولة الأموية ذروة اتساعها وأقصى حدودها، التي امتدَّت من أطراف الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً.

كان المسلمون قد بسطوا سيطرتهم على إقليم سبتمانيا منذ سنة 101 هـ، وأصبح منذ ذلك الوقت مركزاً لهم للإغارة على مدينتي برغانديوأقيتانية في جنوب فرنسا الحالية، وقد انتصر عليهم دوق أقيتانية في معركة طولوز على أيام يزيد وقتل قائدهم عنبسة بن سحيم الكلبي ، غير أن المسلمين استأنفوا القتال بعد أن عين عبد الرحمن الغافقي والياً جديداً للأندلس، والذي قادهم على رأس جيش من 8,000 جندي سنة 112 هـ (730 م)، فنهبوا بونة وفرضوا الجزية على سان وفتحوا أفينيون .وقد تابع المسلمون تقدمهم، فانطلق عبد الرحمن على رأس جيش سنة 112 هـ

وفتح بوردو فأقيتانيا وبرديل وغيرها، وفي النهاية خاض معركة بلاط الشهداء سنة 114 هـ (732 م)، ووصلت بذلك فتوحات الأمويين في المغرب أقصاها في عهد هشام، وظلَّ المسلمون محتفظين بحدودهم هذه بجنوب فرنسا (عند سفوح جبال البرانس الشمالية) حتى سنة 181 هـ .

استمرَّت الغزوات والصوائف والشواتي ضد البيزنطيين في عهد هشام بن عبد الملك كما كانت الحال طوال العهد الأموي، غير أن هذه الغزوات – كالعادة أيضاً – لم تغير حدود الدولتين الأموية والبيزنطية. وقد قطعت صائفة سنة 107 هـ البحر إلى جزيرة قبرص، وفتح مسلمة بن عبد الملك مدينة قيصرية سنة 108 هـ، ووصل سعيد وسليمان بن هشام إليها أيضاً في سنة 111 هـ، وقد نجح الثاني في هزمقسطنطين وأسره خلال الغزوة .وفي البحر الأبيض المتوسط غزا أمير إفريقية» حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع «جزيرةصقلية وفتح بها مدينة سرقوسة سنة 121 هـ، كما غزا عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا سنة 117 هـ وتمكن من السطيرة على قلعتها . غزا المسلمون أيضاً منطقة أرمينيا والقوقاز مراراً وتكراراً في عهد هشام، حيث غزاها الحجاج بن عبد الملك بداية وفرض عليها الجزية، غير أن غزوها أعيد بعد نقضها العهد مرات كثيرة،[119] فقد حدث ذلك في سنة 110 هـ، ثم 112 هـ، ثم 113 هـ، فقتل ابن خاقان الترك في الأخيرة، فتوجَّه لقتال المسلمين انتقاماً لابنه سنة 114 هـ غير أنه هزم، ثم نقض العهد مجدداً سنة 117 هـ فغزاهم المسلمون مجدداً، ثم تكرَّر الأمر ذاته سنة 120 هـ،وأخيراً غزى مروان بن محمد بلاد السرير سنة 121 هـ وفرض عليها الجزية، كما شهد ذلك العام وفاة مسلمة بن عبد الملك بعد أن قاتل بشدة لعقود ضد الأتراك والبيزنطيين .

وعلى جبهة الشرق استمرَّت الغزوات طوال الوقت لكن دون تحقيق فتوحات كبيرة، فقد غزى المسلمون فرغانة سنة 106 هـ، ثم بلاد الجبل وجبال هراة وبلاد الختل، غير أن أهل الأخيرة نقضوا العهد فأعيد غزوها سنة 112 هـ،فرد سكانها بالأتراك بأن جاءوا وغزوا سمرقند فاقتتل معهم المسلمون قتالاً شديداً وانتصروا عليهم. وأعيد غزو بلاد الختل سنة 119 هـ وقُتل ملكها» بدر طرخان«، كما قتل ملك الترك سنة 120 هـ. وقد غزى المسلمون ما وراء النهر ثلاث مرات سنة 121 هـ وفرغانة مرتين سنة 123 هـ .

لم تتوقف ثورات الخوارج في عهد هشام كما كانت الحال في أغلب فترة حكم الأمويين، وكان من أبرز ثوراتهم عليه ثورة» شبيب بن صحاري « الذي قُتل في معركة بالعراق سنة 119 هـ، كما شهدت السنة نفسها ثورة في الجزيرة، وشهد عهد هشام أيضاً ثورتين في المغرب وثالثة في الأندلس للخوارج .غير أن أكبر الثورات في عهده على الإطلاق كانت ثورة زيد بن علي بن الحسين . وقد بدأت ثورته بأن أرسل إليه أهل الكوفة يقولون له» : إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية .«فردَّ عليهم» :إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي .«لكنه استجاب لهم على الرغم من ذلك وأعلن الثورة على هشام سنة 121 هـ وبايعه 15,000 رجل، وكانت تلك أول ثورة للشيعة منذ عهد مروان بن الحكم. وقد أمر هشام والي الكوفة» يوسف بن عمر الثقفي « بإخماد الثورة، فتوجَّه إلى زيد بن علي، وهنا انفضَّ عنه أغلب من بايعه فلم يبقى ممن كان معه سوى 200 رجل، وقد هـ زم وقُتل زيد في المعركة، ومع ذلك فقد حزنَ هشام على موته لكرهه سفك الدماء .

عهد هشام بن عبد الملك

هشام بن عبد الملك الأموي القرشي 125-71) هـ 691) (م 743 - م) كان عاشر خلفاء بني أمية (حكم: 105–125 هـ/724–743 م)، في عهده بلغت الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها، حارب البيزنطيين واستولت جيوشه على ناربونه وبلغت أبواب بواتيه (فرنسا) حيث وقعت معركة بلاط الشهداء.

مناطق حكمها الأمويون قبل عام 750 م

شهدت الفتوحات الإسلامية في عهد هشام بن عبد الملك تقدماً كبيراً.

ولد في دمشق. بويع للخلافة بعد وفاة أخيه يزيد عام 723 م. وتزايدت في عهده العصبية القبلية بين المضرية واليمانية، واشتعلت فتن وثورات عديدة في أنحاء الدولة: ثورة الخوارج والشيعة في الكوفة) بقيادة زيد بن علي بن الحسين)، والبربر في المغرب؛ وكذلك اضطربت الفتن في بلاد ما وراء النهر، وقد قضى عليها جميعاً بحنكته ودهائه وقوته.

فــي عهـده صـار للدولـة الأمويـة أضـافة للعاصـمة الدائمـة ومقـر الخلافـة دمشـق، وعاصـمة صـيفية وهــي مدينــة الرصــافة علــى نهــر الفــرات بسـوريا تســمى رصــافة هشــام عرفـت بأنهــا جنــات وبســاتين مصــغرة عــن بســاتين دمشــق، أهـتم بتنظـيم الـدواوين، وعمـل علــى رعايــة العلـم والثقافــة، وترجمـت فــي عهــده الكثيــر مــن المؤلفــات. عمــل علــى إصــلاحالزراعة فجفـف المســتنقعات وزاد مســاحة الأراضـــي المزروعة على ضفاف الأنهار

وفي ارجاء الدولة. واهتم بالتوسعات، وحقق العديد من الانتصارات على الروم وفي جنوبي بحر الخزر. تميز عهده بسيادة الأمان في بلاد الشام وارجاء البلاد الإسلامية. توفي بالرصافة، ويعتبر من الخلفاء الأمويين الأقوياء.

نسبه

هو: هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أمه: أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

خلافته

بويع له بالخلافة في سنة 105 هـ/724 م وكان عمره يوم استخلف 34 سنة وأتته الخلافة وهو بالرصافة.

ثورة زيد بن علي وسبب خروجه

اختلف المؤرخون في سبب خروجه فمنهم من يقول: "أن هشام احتقره في مجلس له" ومنهم من يقول: "إنه خرج بسبب ظلم يوسف بن عمر الثقفي"

بعد أن ألح أهل الكوفة عليه أن يخرج وقد نصحه الكثيرون بعدم الخروج مذكرينه بما حدث لأجداده لكنه أبى إلا الخروج. ولما بلغ خبره يوسف بن عمر وهو بالحيرة تهيأ له.فلما ظفر به يوسف قتله وكان ذلك سنة 122 هـ.

معركة بلاط الشهداء

بعد أن توقفت الفتوح في أوربا قليلا في عهد عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك تقدم العرب لإستكمال فتوحاته بقيادة عبد الرحمن الغافقي الذي ألحق هزائم كبيرة بالنصارى الإفرنج وتابع عبد الرحمن انتصاراته إلى أن وصل إلى بواتييه وهناك اصطدم بشارل مارتل وحدثت معركة بلاط الشهداء التي انهزم فيها المسلمون والتي استشهد فيها عبد الرحمن ل تكون بذلك آخر الحملات الإسلامية لفتح أوربا الغربية.

ثورة البربر

عندما وصل الخبر إلى هشام بن عبد الملك بهزيمة العساكر الأموية بالمغرب استنهض عبيد الله بن الحبحاب وكتب إليه يستقدمه وولاه على أفريقية سنة123 هـكلثوم بن عياض القشيري وعلى مقدمته بلج بن بشر القشيري فأساء إلى أهل القيروان فشكوا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو بتلمسان مواقف للبربر فكتب إلى كلثوم بن عياض ينهاه ويتهدده فاعتذر وأغضى له عنها ثم سار واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة ومر على طريق سبيبة وانتهى إلى تلمسان ولقي حبيب بن أبي عبيدة واقتتلا ثم اتفقا ورجعا جميعا وزحف البربر إليهم على وادي طنجة وهو وادي سوا فانهزم بلج في الطلائع وانتهوا إلى كلثوم فانكشف واشتد القتال وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير من الجند وتحيز أهل الشام إلى سبتة مع بلج بن بشر فحاصرهم البربر وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن الفهري أمير الأندلس في أن يجيزوا إليه فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يقيموا سنة واحدة وأخذ رهنهم على ذلك وانقضت السنة وطالبهم بالشرط فقتلوه وملك بلج الأندلس.

أهم انجازاته

قام بتعريب الدواوين وأنهاء العمل باللغة البيزنطية كلغة دولة والعمل باللغة العربية.

أعاد الجراح بن عبد الله الحكمي لولاية بلاد ما وراء النهر وأقره عليها بعد ما كثرت الأضطرابات عام 111 هـ، 729 م، فتصدى الجراح للخارجين عن دولة الخلافة من الترك والخزريين وغيرهم، وحارب في معركة حامية الوطيس في بلاد داغستان حيث حاربهم عند مضيق الدربند (باب الأبواب)،

وأستدرجهم إلى صحراء ورثان، وصمد فيها الجراح مع أصحابه وأدت في النهاية إلى أستشهاده، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة بمقتله وأستشهاده، أمر بتسيير جيش بقيادة سعيد بن عمرو الحرشي وارسل إلى الأمراء الأجناد بمساندة هذا الجيش وأناط بأخيه مسلمة بن عبد الملك بقيادة هذا الجيش، وكان في هذا الجيش آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، وكان من كبار المجاهدين فما إن وصل هذا الجيش إلى هناك حتى دك قلاع الخزرين واللان والأتراك وغيرهم، وضم البلاد إلى دار الخلافة الإسلامية، وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك حتى بلغ مدينة باب الأبواب وهي ميناء كبير على بحر الخزر ومدينة كبيرة محصنة، من ناحية أذربيجان. ومن ذلك التأريخ لم تصل الدولة الإسلامية إلى أوسع من هذه المساحة في الأتساع الجغرافي، من الصين شرقا إلى الأطلسي غربا، وكانت عاصمتها دمشق.

شجع العلماء، وأهتم بالبناء وأشتهر عهده بنظام العمارة الأموي، وأرسى الأمن في أرجاء الدولة، وفتح العديد من البلدان وأرسل الرسل ونشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر والهند والسند وغيرها من البلدان، وعمل على تطوير الزراعة ونظام الري، وأهتم بالترجمة وساند العلماء والفقهاء وجلب المفكرين والعلماء إلى دمشق،وأنشأ المكتبات والمطابع ودور العلم وكانت دمشق في عهده منارة للعلم والحضارة.

له من الأولاد:

- معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، أُمه أم ولد (جارية)، وقيل أمه هي أُم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي بن أُمية، وهو والد الأمير عبد الرحمن الداخل الملقب بِصقر قريش مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، توفي معاوية في حياة والده عام 119 هـ، له 13 ابناً من الذكور.
- أبو الغمر سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أُمه أُم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي بن أُمية ، قائد عسكري، قتله الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح عندما حرضه على ذلك شاعر أعجمي.
- مسلمة بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أُمه أُم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي بن أُمية.
- يزيد بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أُمه أُم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي بن أُمية.
- محمد بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أُمه أُم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي بن أُمية.
- يحيى بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- عبد الله بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أُمه عبدة بنت عبد الله بن الخليفة يزيد بن الصحابي والخليفة معاوية بن أبي سفيان الأموية.
- مروان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أُمه أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن الصحابي والخليفة عثمان بن عفان.
- يحيى الأصغر بن هشام بن عبد الملك بن مروان.

- عبد الله الأصغر بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- سعيد بن هشام بن عبد الملك بن مروان، شقيق معاوية أي من ذات الأم.
- عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- عثمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- قُريش بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- خلَف بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- الوليد بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- عبيد الله بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- عبد الملك بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
- أم هشام بنت هشام بن عبد الملك بن مروان، تزوجها ابن عمها أمير المؤمنين يزيد بن الوليد بن عبد الملك ولكنه لم يدخل بها، فتزوجها بعده ابن أخيه عبد الملك بن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، ثُم تزوجها عبد الله بن الخليفة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.
- أم سلَمة بنت هشام بن عبد الملك بن مروان، تزوجها ابن عمها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان.
- عائشة بنت هشام بن عبد الملك بن مروان، تزوجها عبيد الله بن الخليفة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

فتح الغال

فى عهد هشام بن عبد الملك

الغال الاسم القديم للمنطقة المعروفة اليوم باسم فرنسا (تبع الفتح الإسلامي للأندلس الذي بدأه طارق بن زياد سنة711 م.

انطلاق حملة الغافقي

حشد الغافقي جيشاً قوامه 50 ألف مقاتل، وهو أكبر جيش أموي دخل الأندلس وغالية حتى ذلك الوقت، فحتى طارق بن زياد كان جيشه يتألف من 7 آلاف مقاتل، وطريف بن مالك كان جيشه 5 آلاف، وموسى بن نصير كان جيشه 18 ألفاً، وبذلك يكون جيشهم جميعاً 30 ألف مقاتلأي أن الغافقي قد جهز حملة لم يسبق لأحد من قادة الأمويين قبله أن جهز مثلها.

كان الغافقي من طراز حسان بن النعمان يعمد إلى الفتح وترسيخه وتعزيز الحاميات قبل الانطلاق إلى فتحٍ غيره، فانطلق في البداية من سرقسطة نحو إقليم كاتالونيا في الأندلس، وهو أقرب إقليم إلى بلاد الغال، فعمل على تقوية هذا الثغر والقضاء على الثوار فيه، ثم تحرك إلى إقليم سبتمانيا الأموي فعزز من وجود الحاميات فيه، وعاد بعدها إلى مدينة بنبلونة في شمالي أيبيريا،

فانطلق منها وعبر معبر الرونسفال في جبال المعابر أو جبال الأبواب (في اللاتينية تسمى جبال البرت Porta، وتعني الباب) ، وكان هدفه أقطانيا والتي كانت حدودها تنتهي عند نهر اللوار والدوق أودو.

وصل الغافقي إلى إقليم أقطانيا، وسار في الطرف الغربي من فرنسا باتجاه الشمال، ثم انحرف باتجاه الشرق والجنوب إلى مدينة آرليس فأعاد فتحها وحصَّن المسلمين فيها، ثم عاد إلى أقطانيا وكان حريصاً على أن يصلها بسبتمانيا، لتمكين المسلمين من كلا الإقليمين معاً.

معركة نهر الجارون

كان أودو حاكم أقطانيا قد جمع للغافقي كل ما استطاع، وكان حاكماً ذا سلطة ونفوذٍ وعلى اتصال مستمر ببابا الكنيسة في روما، ويطلق على نفسه لقب أودو العظيم، فخرج للقاء الغافقي، واصطدم الجيشان في معركة نهر الجارون، والتي كان النصر فيها حليف المسلمين، وكثر القتل في جيش أودو، حتى قال بعض المؤرخين: إن الله وحده يعلم عدد القتلى .

وبعد هذه المعركة الحاسمة، فتحت مدن ومقاطعات أقطانيا بالكامل، ويشار من بينها إلى مدينة بوردو عاصمة الإقليم .وصل عبد الرحمن الغافقي إلبواتييه ففتحها، ثم وصل إلى تور الواقعة على نهر اللوار وفتحها أيضاً، وبذلك بات على مشارف ممالك الشمال الجرمانية والفرنجية.

يرى بعض المؤرخين أن الغافقي لم يكن ينوي التقدم أكثر من ذلك، بل كان ينوي تحصين المدن المفتوحة وتقويتها لتصبح ثغراً للمسلمين، كما هي الحال فيسبتمانيا، ولم يكن معه من الجند ما يكفي لفتح مدن أكثر، فبعد مسيرة طويلة في جنوب غالة وغربها، وبعد معركة نهر الجارون، لم يكن قد بقي معه أكثر من 10–30 ألف مقاتل

أما قارلة- الملك الفعلي للفرنجة– فقد كان ي عمل طوال فتوحات الأمويين في غالة على أن يظل بعيداً نائياً بنفسه عن مواجهتهم، على الرغم من أنَّ حملاتهم كانت على مقربة من أرضه، بل وقد دخلت حدود أرضه أحياناً كحملة عنبسة بن سحيم الكلبي التي افتتحت إقليم بورغانديا بالكامل الذي هو جزء من مملكة قارلة، ووصلت سراياها حتى سفوح جبال فوسغس في قلب مملكة الفرنجة، ولكن قارلة لم يصطدم معهم، كما تشير الـ مصادر التاريخية الإسلامية أيضاً إلى أن حملة عنبسة لم تلق مقاومة تذكر، وأنه آثر العودة إلى قاعدته لأسباب إستراتيجية، لأنه شعر أنه توغل كثيراً في أرضٍ لا تزال مجهولةً بالنسبة للمسلمين .وتذكر بعض هذه المصادر أيضاً (مثل ابن عذاري وابن الأثير (أن عنبسة مات ميتة طبيعية ولم يقتَل في طريق عودته .

يعتقد بعض المؤرخين (مثل عبد الرحمن علي الحجي (أن قارلة رأى أن المسلمين أشداء في معاركهم وفتوحاتهم، وأن مواجهتهم وهم في أوج قوتهم ليست في صالحه، فترك أقطانيا وغيرها –وهم خصوم قارلة الذين أجبرتهم غزوات المسلمين على اللجوء إليه والتحالف معه– ينالهم من المسلمين ما ينالهم، في حين أخذ يعد ما بوسعه هو من العدد والعتاد للاشتباك في الوقت المناسب

.وبعد انتصارات المسلمين في غالة قرر تشارلز بالفعل أن الوقت قد حان للقائهم مباشرة بعد أن خاضوا حروبهم الأخيرة، وألا يتيح المجال أمام الغافقي كي يوطد نفسه ورجاله، ويعيد تجديد حملته، ويجلب الإمدادات.

وصادف ذلك قدوم أودو –منافس قارلة - إليه، وكان أودو قد أعاد لمَّ رجاله وقواته، ولكنها لم تكن تكفيه كي يستعيد ملكه، فطلب من قارلة أن يساعده في استعادة أقطانيا، وكان هذا ما أراده تشارلز، حيث أخذ من أودو ميثاقاً بالولاء له ولدولته، وكان له ما أراد، فتحالف هكذا أودو العظيم مع تشارلز مارتل ضد المسلمين.

قوات الشمال تزحف باتجاه رافد اللوار

خرج قارلة بجيش كبير جداً، حيث كان قد جلب مرتزقة ومقاتلين من حدود الراين وقوات من بورغانديا، ومتطوعين من كل أنحاء أورباوبرعاية من بابا الكنيسة في روما ، كما انضم إليهم أودو بفلول جيشه، فبات جلياً أن انهزام الجيش سيعني انكسار ممالك أوربا كلها.

كان عبد الرحمن قد وصل إلى تور مع من تبقى من جيشه، وكانت حملته بحاجة إلى الدعم بالإمدادات لتعويض ما خسرته من جنود في أقطانياوكاتالونيا وسبتمانيا وغيرها سواء في المعارك التي خاضتها أو في الحاميات التي خلفتها ورائها أو غير ذلك .

أراد قارلة ألا يتيح هذا المجال أمام الغافقي، وأن يسارع لمواجهته في هذا التوقيت، فاختار زمن المعركة الذي يناسبه، كما أنه أراد أن يختار أرض المعركة أيضاً، خصوصاً وأنه كان قد سبق لجيش المسلمين أن انتصروا مراراً في معارك حاسمة كانوا فيها قلة كاليرموك ومعركة وادي لكة.

يرى شوقي أبو خليل أن قارلة لم يكن مسيحياً متديناً، وأنه لم يحارب من أجل الصليب، بل غلب على طبعه وسياسته العكس تماماً، ويستدل على ذلك بأ ن كثيراً من مقاتليه كانوا مرتزقة وثنيين (خصوصاً أبناء القبائل الجرمانية(غلبت على معتقداتهم الأساطير والخرافات، كما يستدل على ذلك أيضاً بأن شارل مارتل نفسه –كما يقول شوقي أبو خليل -كان إذا هاجم أراضي خصومه ومنافسيه لا يتورع عن تهديم الكنائس مع أنه كان مسيحياً .

ويتابع شوقي أبو خليل قائلاً: "وفضلاً عن ذلك، فإن قارلة ((شارل مارتل)) عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة، لم يردها على أهلها بل وزعها على رجاله".

رأى قارلة أن مواجهة المسلمين وهم متحصنون في تور قد تكسر كثرة جيشه، فرأى أن يستدرجهم إلى خارج المدينة إلى السهل الواقع غرب رافد نهر اللوار، حيث سيمكنه هذا السهل من محاصرة المسلمين من الخلف، ومن أكثر من جهة، معززاً بذلك تفوق عامل الكثرة الذي يتمتع به جيشه.

مع الإشارة هنا إلى أن هذا السهل هو سهل أحراش، الأمر الذي ساعد المسلمين نوعاً ما في صمودهم في المعركة، في حين يرى آخرون –ومنهم الغنيمي– أن الأحراش لعبت دوراً سلبياً بالنسبة للمسلمين . أرسل قارلة فرقاً صغيرة من طلائع جيشه إلى الضفة الشرقية من النهر، فعندما علم بأمرها عبد الرحمن، أرسل فرقاً استطلاعية لكشفها، وعادت تلك الفرق تخبره أنها فرق قليلة العدد يسهل القضاء عليها،

فخرج عبد الرحمن من المدينة لمواجهتها، وبذلك تحقق لقارلة ما أراد، فعندما عبر الغافقي وقواته إلى ضفة النهر الشرقية، حرك قارلة قواته باتجاه أرض المعركة، وكانت مهولة الكثرة كالطوفان المندفع كما يصفها شوقي أبو خليل .

عندما رأى عبد الرحمن هذا الجمع الهائل ارتد بقواته إلى السهل بين تور وبواتييه، فقد أدرك عندها ما أراده عدوه، وأنه أراد الإيقاع به وبقواته في السهل، حيث سيظهر تفوق العدد بشكل واضح.

أخذ عبد الرحمن يعد بعض التحصينات، ومن المحتمل أنه عمد إلى حفر خندقٍ حول مؤخرة الجيش كي يحبط محاولات الفرنجة للالتفاف عليه، ومما يشير إلى ذلك اكتشافات حديثة لسيوف عربية هناك في منطقة تدعى خندق الملك Fossi le-Roi وفق ما أورده الأستاذ الدكتور عبد الرحمن علي الحجي وأشار إليه أيضاً الدكتور الغنيمي، والمرجح أن المقصود بالملك هو عبد الرحمن الغافقي، والخندق هو الخندق الذي عمد إلى حفره، ولكن الظاهر أن هذا الخندق كان سريع الإعداد هش المفعول ولم يتسن للمسلمين الوقت كي يكملوه كما يجب. تقدم قارلة بقوات الشمال ونزل على مواجهة مع الجيش الأموي، استعداداً للمعركة، حيث انحرف الجيش الأموي قليلاً وتجمع في جهة الجنوب باتجاه بواتييه –كي يؤمن اتصاله بالجنوب–، وكان جيش أوربا ينحرف قليلاً ويتجمع في جهة الشمال باتجاه تور - كي يؤمن اتصاله بالشمال-

مرحلة السقوط

الدولة الأموية في الأندلس

توفيَّ هشام بن عبد الملك في شهر ربيع الآخر سنة 125 هـ (فبراير سنة 743 م)، وكان آخر من حكم من أبناء عبد الملك بن مروان، وبعده آل الحكم إلى جيل الأحفاد، وكانت تلك بادرة انحطاط الدولة .وقد كان حكم جيل الأحفاد – المرحلة الثانية من عصر المروانيين – عهداً توقفت فيه الفتوحات بعد كل ما حقّقته في العقود الماضية، وغرقت الدولة عوضاً عن ذلك في صراعاتها ونزاعاتها الداخلية .وقد كان وليُّ عهد هشام هو الوليد بن يزيد ، حيث عينه والده يزيد بن عبد الملك ولي عهد ثانٍ نظراً إلى صغر سنه آنذاك، ولكن حتى عندما توفي هشام بعد عقدين كان لا يزال شاباً يعيش حياة لهو وترف على شاكلة والده، ولم تكن لديه مؤهلات كافية للخلافة، وقد كان عهد الوليد الثاني هو بداية انحطاط وسقوط الدولة الأموية .

كان هشام يخطط في عهده لوضع ابنه مسلمة ولياً للعهد بدلاً من الوليد، الذي لم يرى فيه أهلاً للخلافة (على الرغم من أن مسلمة لم يكن مختلفاً كثيراً في لهوه وترفه عن الوليد في الواقع)، وقد أيَّده بعض من حوله في ذلك، مما أخاف الوليد من أن يدبر هشام لقتله، لكن الأجل وافى هشام قبل أن يحدث ذلك، فاستغلَّ الوليد الفرصة وأخذ الخلافة لنفسه، ثمَّ أخذ بملاحقة من أيَّد تنصيب مسلمة ولياً للعهد مكانه وانتقم منهم مستغلاً سلطاته كخليفة . وقد أدَّت انتقامات الوليد هذه إلى ثوران بعض القبائل التي انتمى إليها ضحاياه،

والتي طالبت بالثأر، فاجتمع عدد كبير منها، وأيَّد القدرية الثورة لأنها كانت ضد حكم بني أمية، وقد استمال هؤلاء يزيد بن الوليد، فقادهم وجمع 1,000 رجل في دمشق بعد أن عرض عليهم الكثير من المال، ثمَّ سار إلى منزل الخليفةفقبض على الوليد وقتله إذ أنه لم يكن يملك حامية كبيرة، وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة سنة 126 هـ (أبريل سنة 744 م)، وقد فتح مقتله باب فتن كبيرة عصفت بالدولة. حاول يزيد الثالث أن يكون خليفة صالحاً وزاهداً على طريقة عمر بن عبد العزيز، فحاول التقشف، وأعاد رواتب الجند إلى ما كانت عليه بعد أن رفعها الوليد في عهده، فأغضب هذا الجند الذين منحوه لقب "الناقص" وقد فجع كثيرون آخرون بمقتل الخليفة ولم يبايعوا يزيد، و لذلك فقد أخذت الدولة بالتدهور سريعاً في عهده، وسرعان ما توفيَّ بعد حكم دام ستة أشهر وفي السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة، بعد أن نصَّب أخاه إبراهيم بن الوليد ولياً للعهد بناء على طلب القدرية .

اضطربت الأوضاع كثيراً عند وفاة يزيد، حيث رفض الكثير من الناس بيعة أخيه إبراهيم واعتبروه هو ويزيد مسؤولين أساسيَّين عن مقتل الوليد والفتن التي فجَّرها، وهنا تدخل مروان بن محمَّد) ابن عم إبراهيم ويزيد ووالي أرمينيا وأذربيجان) وسار إلى دمشق على رأس جيش من 80,000 جندي، وكان قد أتاها من قبل في أيام يزيد، لكن ذاك استرضاه ووعده بالإصلاح، ولكنه عزم هذه المرة على خلع الخليفة، ودخل المدينة في شهر ربيع الآخر سنة 127 هـ (745 م)، فهرب منها إبراهيم، وبويع مروان بالخلافة.

كان مروان بن محمد خليفة قوياً ذو حنكة وكفاءة عاليتين في إدا رة الدولة، وكان قائداً عسكرياً ذا خبرة عالية خاض حروباً طويلة مع البيزنطيين، وميَّزه ذلك عن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، غير أن الأوان كان قد فات لإصلاح أمور الدولة، وكانت قد سقطت بالفعل في فوضى ونزاعات داخلية عارمة، ولذلك فقد كانت نهايتها في عهده هو .عن دما بويع مروان بالخلافة كان من الأشياء الأولى التي فعلها هي نقل العاصمة من دمشق إلى مدينة حران في الجزيرة، إذ أنه لم يثق بمن في الشام، وكانت ثقته محصورة بمساعديه وقادته الذين عرفهم وتعامل معهم لسنوات طويلة خلال ولايته على أرمينيا وأذربيجان،غير أن هذا التصرف جاء بعواقب وخيمة. حيثُ ثار عليه أهل الشام، فبدأت الثورة من فلسطين، ثم زحفت إلى دمشقفحمص، وبذلك خسر تأييد أهل الشام أنفسهم وهم أنصار الأ مويين الأساسيين، مع أنه سرعان ما سار وقمع الثورة .لكن لم تستكن الأمور، فقامت الثورات واحدة تلو الأخرى، مرة في الجزيرة واليمن سنة 127 هـ، وأخرى في الموصل سنة 129 هـ، ثم في أفريقية في سنتي 131 هـ و132 هـ،فضلاً عن الانقسامات الداخلية بين القبائل العربية المختلفة وداخل البيت الأموي نفسه. وقد أنهكت هذه الثورات المتتالية مروان، فأخذ يتنقل من منطقة إلى منطقة يحاول السيطرة على الدولة ومنعها من الانهيار، لكنه تفاجأ وهو غارق في صراعاته الداخلية يقمعها واحداً تلو الآخر بالمد العباسي يأتي من المشرق فيكتسح خراسان فالعراق،فسار إليهم ووقعت معركة الزاب الكبير في شهر جمادى الآخرة سنة 132 هـ (750 م)، وقد كا نت هذه المعركة هي نهاية الدولة الأموية وسقوطها،[138] وقُتل مروان بعدها ببضعة شهور.

أخذ العباسيون بعد قيام دولتهم بملاحقة بني أمية وقتلهم، ولذلك فقد فرَّ الكثير منهم بعيداً محاولين النجاة بأنفسهم. وقد كان من بين هؤلاء عبد الرحمن الداخل ، الذي فرَّ إلى الأندلس، وأعلن استقلاله بها وتأسيس ولاية أموية في قرطبة سنة 138 هـ (755 م.) وقد تمكن الأمويون من البقاء بهذه الطريقة، فأسسوا الدولة الأموية في الأندلس ، وظلّوا يحكمونها زهاء ثلاثة قرون، غير أن مصيرها في النهاية كان السُّقوط سنة 422 هـ بعد أن تفككت الأندلس إلى إمارات صغيرة مستقلة.

الدولة الأموية والحضارة

المجتمع

يمكن القول أن المجتمع في عهد الدولة الأموية – على الرغم من عدم امتلاكه تدرجاً اجتماعياً دقيقاً أو صارماً – قد تألف من خمس طبقات أساسية، هي: الخلفاء والولاة والعلماء والأثرياء والعامة. فالطبقة الأولى هي الخلفاء وعائلاتهم، وهم أصحاب السلطة والسيادة العليا في الدولة ولهم الصلاحيات المطلقة بها. ثم يليهم كبار الولاة والقادة وكاتبو الدواوين . فالعلماء، الذين مع أنهم يأتون في الطبقة الثالثة فقد كان احترام العامة لبضعهم يفوق احترامهم وتقديرهم للولاة والخلفاء أنفسهم . ثم كبار الأثرياء من التجار وشيوخ العشائر. وأخيراً تأتي الطبقة الخامسة وهي عامة الناس، مثل المزارعين والحرفيين وغيرهم .

عاش العرب بشكل عام حياة بسيطة في أيام الإسلام وقبله، فكان طعامهم على سبيل المثال يتألف من بضعة أصناف فحسب، أفخرها على الإطلاق هو اللحم مع الثريد . لكن مع توسع الفتوحات في العصر الأموي وترامي أطراف الدولة وازدهارها اختلفت الحال، إذ اقتبس العرب عادات الكثير من الثقافات التي احتكوا بها نتيجة الفتوحات، فأصبحوا يستخدمون أدوات فخارية وخشبية لتناول الطعام كانت تأتيهم من الصين مثل الشوك والملاعق، وأصبحوا يتناولون طعامهم على موائد وكراس خشبية بدلاً من أن يجلسوا على الأرض ويتناولوه بأيديهم كما في السابق. وقد ساهم في نقل مثل هذه العادات الحياتية والاجتماعية إلى العرب إحضارهم الكثير من الجواري إلى بلادهم، فنقلن إلى العرب عادات وتقاليد شعوبهن .

كانت المناسبات الإسلامية وأبرزها عيدا الفطر والأضحى ذات صدى كبير في أنحاء الدولة الأموية، فكان يخرج الخليفة في موكب مهيب وسط رجال الدولة الكبار يتقدمهم الجند لأداء صلاة العيد. كما أن الأعراس والأفراح وبعد أن كانت بسيطة جداً في عهود الخلفاء الراشدين وما قبل الإسلام باتت مترفة جداً وتنفق عليها أموال طائلة، فكانوا يقيمون ولائم عظيمة في الأعراس، ثم يلعب الفتيان بالرامح ويتسابقون بالخيل فيما تجلس النساء يتحدثن إلى بعضهن البعض، وأما العروس فكانت تزين بزينة عظيمة، ويحيط بها خدمها يغنون لها حتى تذهب إلى بيت زوجها. وقد كان من وسائل الترفيه والتسلية الشائعة في تلك الحقبة جلب المغنين أو «المضحكين» الذين يلقون النكات ويضحكون الناس. كما كانت ألعاب النرد والشطرنج شائعة أيضاً، اللتين أخذهما العرب من الفرس . كما كانوا يرفهون عن أنفسهم بالصيد والرياضة، وأقامت الدولة في عهد هشام بن عبد الملك سباقات كبيرة للخيل بلغ عدد المشاركين فيها 4,000 حصان في إحداها .

بشكل عام امتاز المجتمع في العصر الأموي بالترف الكثير على النقيض من عهود الإسلام السابقة. ولم ينعكس ذلك على المناسبات والعادات الاجتماعية فحسب، إنما على ملابس العامة أيضاً، فتنافس الناس وخصوصاً الخلفاء وكبار رجال البلاط في شراء الملابس الجديدة والفاخرة والمتميزة، وأصبح الجميع يرتدون جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس. ثم ومع ازدياد الإسراف أصبح التجار يجلبون معهم إلى البلاد الإسلامية مختلف أنواع الحرير والصوف بين موشّى ومطرز ومحاك بالذهب والفضة ومرصع بالأحجار الكريمة . وكان خلفاء بني أمية يرتدون ملابس بيضاء على الأغلب

ومـن أفخـر أنـواع القمـاش المطـرز . وكـان مـن قطـع الملابـس التـي ارتـداها الأمويـون: القبـاء (رداء أو زي خـارجي مفتـوح عنـد الرقبـة أو يقفـل بـأزرار وهـو ضـيق الكمـين وفـي بعـض الأحيـان متوسـط الاتسـاع) والدراعـة (جبـة مشـقوفة مـن الأمـام) والطيلسـان (الطـرح التـي تغطـي الـرأس) والغلالـة (ثـوب رقيـق شـفاف يشـبه القمـيص الـذي ترتديـه المـرأة) الملحفـة (ملايـة) والإزار (لبـاس لسـتر العـورة) والشاشية (قبعة) والتكة (رباط السروال)

كما أن أسلوب إنتاج الأقمشة الخاصة المطرزة في المناسج الملكية ولد في العصر الأموي، ثم تطور لاحقاً وساد في أنحاء الدولة الإسلامية خلال العصور الوسطى ، وكان أول خليفة أموي يؤسس مصانع خاصة للنسيج المطرز هشام بن عبد الملك . وقد كان من الظواهر المهمة في العصر الأموي أن أصبح غير المسلمين يرتدون ملابس العرب الفاخرة، حتى جاء عهد عمر بن عبد العزيـز الذي حرم على أهل الذمة ارتداء لباس الرأس العربي ومنه العمامة والعصب والطيلسان والملابس العسكرية العربية والأردية الخاصة مثل القبعة، وكان على هؤلاء أن يرتدوا حزاماً متميزاً يسمى المِنْطَق وأحياناً الزُنّار .

الحركة العلمية

على الرُّغم من أن العصر الذهبي للعلوم والحضارة الإسلاميَّين كان في العهد العباسي فقد كان للأمويين دور بارز في التمهيد لهذا الازدهار والتهيأة له، إذ أنهم أرسوا أسس التراث العلمي الذي بنى عليه العباسيون. ومن أهم هذه التطوُّرات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد عبد الملك بن مروان، الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية للدولة أصبحت تستخدم في كل أصقاعها من المشرق إلى المغرب، كما ساهم الوليد كثيراً أيضاً بإنشائه المدارس والمستشفيات تحت رعاية الدولة التي ساهمت هي الأخرى في النهضة الإسلامية اللاحقة. وقد كان من أهم الإنجازات في تطوير الحركة العلمية في العصر الأموي تدوين العلوم وتعريبها للمرَّة الأولى، وهو ما أتاح لعلماء العرب والمسلمين الاطلاع عليها بسهولة، كمان أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها والاستفادة من تلك المعارف في تطوير الحضارة الإسلامية .

كان أول من أنشأ مدارس منظمة تعمل برعاية الدولة وتحت إشرافها في التاريخ الإسلامي هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وساعد انتشار المدارس على التهيأة أكثر للنهضة العلمية العباسية، كما كان من إنجازات الوليد الأخرى أنه أول من أنشأ المستشفيات في التاريخ، وأنشأ إلى جانبها البيمارستانات، وهي دور وظيفتها إيواء المعاقين وذوي الأمراض العقلية والعصبية،

وقد اعتمدت الكثير من المشافي التي أنشأت لاحقاً في قارة أوروبا على نمط وأسس مشافي الوليد بن عبد الملك، وأصبح الأطباء الجدد يتتلمذون على أيدي أطباء هذه المشافي، وكان ذلك البادرة الأولى لولادة المدارس الطبية في التاريخ .

كانت حركات تدوين تاريخ العصر النبوي والراشدي وحتى الأموي نفسه في العصر العباسي في معظمها، غير أنَّ حركة تناقل الأخبار وتسجيلها على نحوٍ محدود بدأت منذ العهد الأموي، وحفظت بذلك استعداداً لتدوينها في أيام العباسيين. وقد ساهمت في هذه الحركة عدَّة عوامل، منها دخول الكثير من الناس من الأمم الأخرى في الإسلام، وقد نقلَ هؤلاء أخبار تواريخ أممهم إلى العرب ورووها لهم، كما ألف بعضهم كتباً خاصة تتحدث عن التاريخ ومغازي الرَّسول منذ تلك الفترة، وهب بن منبه وعروة بن الزبير بن العوام (أوَّل من دون سيرة الرسول) وكذلك أبان بن عثمان بن عفان وشهاب الزهري .

ان للحركة العلمية في العصر الأموي دور كبير وبارز جداً في التمهيد للنهضة العلمية التي سادت في العصر العباسي . فعلى الرُّغم من أن العصر الذهبي للعلوم والحضارة الإسلاميَّين كان في العهد العباسي فقد كان للأمويين دور بارز في التمهيد لهذا الازدهار والتهيأة له، إذ أنهم أرسوا أسس التراث العلمي الذي بنى عليه العباسيون. ومن أهم هذه التطوُّرات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد عبد الملك بن مروان، الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية للدولة أصبحت تستخدم في كل أصقاعها من المشرق إلى المغرب، كما ساهم الوليد كثيراً أيضاً بإنشائه المدارس والمستشفيات تحت رعاية الدولة التي ساهمت هي الأخرى في النهضة الإسلامية اللاحقة

. وقد كان من أهم الإنجازات في تطوير الحركة العلمية في العصر الأموي تدوين العلوم وتعريبها للمرَّة الأولى، وهو ما أتاح لعلماء العرب والمسلمين الاطلاع عليها بسهولة، كمان أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها والاستفادة من تلك المعارف في تطوير الحضارة الإسلامية .

كان من أهم مجالات الازدهار في العصر الأموي إجمالاً العلوم الدينية واللغوية والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب .وقد انقسمت الحركات العلمية في هذا العصر إلى أربع حركات، وهي الحركة الدينية (المعنية بعلوم الدين، مثل تفسير القرآنوالأحاديث والتشريع) والتاريخية (المعنية بتوثيق التاريخ والقصص والمغازي ونحوها) والأدبية (المعنية بالشعر والنثر وما إلى ذلك) والفلسفية (المعنية بالمنطق والكيمياء والطب وما شابهها .(لكن الأمويين لم يميلوا إلى دعم العلوم، فلم يدعم خلفاؤهم أو أمراؤهم سوى الحركتين الأدبية والقصصية من بين كل هذه الحركات العلمية، فلم يكن يمتعهم ويجذبهم سوى الشعر والخطب والقصص، وربَّما كان ذلك بسبب نزعة عربية جاهلية عندهم، ولا يستثنى من هذه سوى خالد بن يزيد بن معاوية، الذي كانت لديه نزعة فلسفية فوق نزعته الأدبية، ودعم بشدَّة الحركات العلمية في مجالات الطب والكيمياء والفلك، بالإضافة إلى عمر بن عبد العزيز الذي دعم الحركة الدينية .

حركة الترجمة والتدوين

وقد شهد عهد الوليد أيضاً حركة ترجمة ضخمة جداً كان لها أثر كبير في نهضة الحضارة الإسلامية، إذ أمر بتعريب دواوين الدولة الأموية كلها من الشرق إلى الغرب، وبتعريب كل ما في الدولة، وعاصره في حقبته خالد بن يزيد بن معاوية - رائد عصر الترجمة، ومن بدأت على عهده حركة الترجمة الحقيقية في العصر الأموي – ، الذي كان مولعاً بالعلوم وأمر بترجمة الكثير من كتبها من اللغة الإغريقية إلى العربية، فأصبحت بهذا لغة العلوم كلها في الدولة الأموية بما في ذلك الطب والصيدلة والكيمياء وغيرها هي اللغة العربية، وأصبح لزاماً على من يريد التعرف على هذه العلوم تعلم العربية، فأخذت اللغة بالازدهار، كما حث الخلفاء الآخرون مثل عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك على الترجمة وأمروا بترجمة الكثير من الكتب البارزة في العلوم والتاريخ والأدب. وقد ساعد على ازدهار حركة الترجمة وجود الكثير من السريان متعلمي العربي، الذين قادوا حركة الترجمة هذه، وساعدوا بشكل كبير جداً على انتشار المدارس والعلوم في العراق والشام.

لكن على الرُّغم من هذا فلا يتفق جميع المؤرخين على ريادة خالد بن يزيد في حركة الترجمة والتعريب وعلى ازدهارها في العصر الأموي، حيث شكك عدة مؤرخين أوروبيين بحجم حركة الترجمة في العصر الأموي ومدى ازدهارها . ومع ذلك فإن ما ورد عن حركات الترجمة والتدوين في العصر الأموي يدل على أن جذور هذه الحركة بدأت على أيام الدولة الأموية قبل أن تزدهر في أيام العباسيين، لكن معظم ما كُتب وترجم وألف في العصر الأموي

فُقدَ الآن ولم يصل منه إلى الوقت الحاضر سوى القليل جداً، وأغلب ما يعرف عن حركات الترجمة والتدوين فيه مأخوذة من كتابات المؤرخين القدماء، وأما في العصر العباسي فقد كانت لا تزال الكثير من الكتب الأموية باقية، وكان لها دور في تنشيط النهضة العلمية العباسية التي تمخضت عنها أعمال أكثر رقياً بكثير من أعامل العصر الأموي .

الحركة الدينية

تمركزت مقارُّ الحركة العلمية الدينية خلال العصر الأموي بشكل أساسي في المساجد، وبعدها أنشأت المكاتب لتحفيظ الصبيان الصغار القرآن وتعليمهم مبادئ الدين .ألف خلال العهد الأموي عددَ من الكتب في علم التفسير، ومن أبرز من عرفوا في هذا العلم وكتبوا عنه في هذه الفترة مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والحسن البصريومحمد بن سيرين، غير أن جميع مؤلـ فاتهم ضاعت، وأقدم كتاب في التفسير بقي إلى عصرنا هذا يعود إلى العصر العباسي، وهو كتاب" معاني القرآن "للفرَّاء. وأما علم الحديث فقد بدأ نشاطه خلال العصر الأموي، فطوال القرن الأول الهجري كان يتناقَل الحديث شفهياً بين الناس، ولم يدوَّن أبداً في تلك الفترة، لأن الرسول محمد نهى عن تدوينه خشية اختلاطه بالقرآن، لكن عندما جاء عهد عمر بن عبد العزيز خشي أن يضيع الحديث بموت العلماء الذين يحفظونه فأمر بتدوينه، فكتب إلى ولاته على أقاليم الدولة المختلفة وأمر كلاً منهم بجمع الحديث من العلماء في ولايته،وبهذه الطريق بدأت حركة تدوين الحديث بالتوسُّع تدريجياً،

وقضى الكثير من العلماء سنوات طويلة في جمعه وتدوينه، ومن أبرز المحدثين في العصر الأموي محمد بن مسلم الزهري وابن إسحاق وسفيان الثوري ومحمد بن راشد اليمني وابن جريج المكي ومالك بن أنس .لكن على الرُّغم من ذلك فإن عصر المحدثين الأساسي الذي تحرَّى فيه العلماء الأحاديث وصنّفوها ووثقوها حسب صحتها لم يأتي حتى القرن الثالث الهجري. كما ولد اثنان من الأئمة الأربعة وعاشا خلال العصر الأموي، وهما أبو حنيفة النعمان ومالك بن أنس، صاحبي المذهبين الحنفي والمالكي ، وقد انتشر المذهب الأوَّل خلال العصر الأموي في مصر والعراق وفارس ووسط آسيا، فيما انتشر الآخر في مصر والمغرب العربي. وقد عاش أيضاً خلال هذه الحقبة فقيهان كبيران آخران، هما الأوزاعي - إمام الشام - والليث بن سعد - إمام مصر –، وقد كان لكيلهما مذهبان فقهيَّان، غير أن مذهبيهما اندثرا لعدم وجود تلاميذ لهما ينشرون المذهبين

الحركة الفلسفية :

عرَّف علماء العرب العلوم الطبيعية بأنها" العلوم التي تحتاج إلى مشاهدة وتجربة واختبار ."وقد كان جلُّ نجاحهم فيها – مثلها في ذلك مثل سائر العلوم الأخرى – في العصر العباسي، غير أن بذور ذلك النجاح كانت قد زُرِعت منذ العصر الأموي . لكن بشكل عامٍ فيبدو من دراسة تاريخ الدولة الأموية أن حركة العلوم الفلسفية أو الطبيعية كانت هي الأقلَّ انتشاراً عندهم كان أوَّل اهتمام ظهر للعرب في الكيمياء في مطلع العصر الأموي على يد خالد بن يزيد بن معاوية، إذ كان مهتماً بالحصول على كتبيونانية وقبطية للتعرُّف على صنعة الكيمياء، وقد استعان من أجل ذلك براهب إسكندراني اسمه" اصطفان "لترجمتها له.

و قد كان لخالد دور أساسي في نهضة العرب بالكيمياء ووضع هو نفسه عدداً من المؤلفات فيها بعد أن أتقن صنعتها، منها "كتاب الحرارات" و"الصحيفة الكبرى" و"الصحيفة الصغرى" و"السر البديع في فك رمز المنيع في علم الكاف" و"فردوس الحكمة في علم الكيمياء منظومة". غير أن الكيميائيين المسلمين البارزين لم يظهروا حتى عهد العباسيين .وأما علم الفلك فلم يكن له هو الآخر نصيب كبير من الاهتمام في العصر الأموي، وظلّت المعر فة به محدودة، عدى عن ترجمة كتاب فلكيٍ واحد مشهور كان الوحيد العربي المتوفر خلال هذه الفترة هو" عرض مفتاح النجوم " لهرمس الحكيم،الذي تُرجِم سنة 125 هـ بأمر من خالد بن يزيد، غير أن معرفة المسلمين بالفلك لم تتطوَّر عموماً حتى أيام العباسيين .لكن بالنسبة لعلوم الأحياء والنبات فإن العرب لم يبدؤوا بالاهتمام بها وتصنيف الكائنات الحية حتى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، ولم يكن لها أي وجود تقريباً في أيام الأمويين .وأما علم الطب في العهد الأموي فقد تأثر كثيراً بالطب اليوناني،وقد ساهم في تطويره وجود الكثير من الأطباء النصارى الذين عيَّنهم الخلفاء الأمويون،حيث ترجم هؤلاء الأطباء الكثير من الكتب الطبية من السريانية إلى العربية لتكون أولى الكتب المدونة باللغة العربية في علم الطب، مثل كتاب" كناش"وكتابي" قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها "و" قوى العقاقير ومنافعها ومضارها "لماسرجويه،ومن أبرز هؤلاء الأطباء ابن أثال وأبو الحكم الدمشقي وحكم الدمشقي وعيسى بن حكم الدمشقي وماسرجويه وتياذوق وابن أبجر وفرات بن شحناتا .

الحركة التاريخية

كانت حركات تدوين تاريخ العصر النبوي والراشدي وحتى الأموي نفسه في العصر العباسي في معظمها، غير أنَّ حركة تناقل الأخبار وتسجيلها على نحوٍ محدود بدأت منذ العهد الأموي، وحفظت بذلك استعداداً لتدوينها في أيام العباسيين. وقد ساهمت في هذه الحركة عدَّة عوامل، منها دخول الكثير من الناس من الأمم الأخرى في الإسلام،وقد نقلَ هؤلاء أخبار تواريخ أممهم إلى العرب ورووها لهم، كما ألّف بعضهم كتباً خاصة تتحدث عن التاريخ ومغازي الرَّسول منذ تلك الفترة، وهب بن منبه وعروة بن الزبير بن العوام (أوَّل من دون سيرة الرسول) وكذلك أبان بن عثمان بن عفان وشهاب الزهري .

فن العمارة :

قبل العصر الأموي كان فن العمارة العربي بسيطاً جداً ولم يتسم بالكثير من المعالم والمميزات، ولم تبدأ العمارة الإسلامية باكتساب نمط مختلف أكثر تعقيداً حتى العهد الأموي،غير أن العمارة الأموية جاءت متأثرة كثيراً وشديدة الشبه بالعمارة البيزنطية التي كانت سائدة قبلها في بلاد الشام ، بل إنها استتسخت تقريباً معالم الفن المعماري البيزنطي في الكثير من الأحيان دون تغيير كبير أو إضفاء صبغة مميزة عليه.

ويمكن ملاحظة هذا التأثير على سبيل المثال في مسجد قبة الصخرة، فنمطه المعماري يشبه إلى حد بعيد النمط البيزنطي المسيحي، ولو أنه مع ذلك يتسم ببعض المميزات الإضافية المتسمدَّة من العمارة الإسلامية، فقد أضيفت إليه بعض المعالم الإسلامية مثل القبة والمئذنة فضلاً عن الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة التي أضيفت إلى زخرفاته، وبهذا مزج الأمويون الطراز المعماري البيزنطي مع العربي فيما أصبح الطراز المعماري الأموي .وقد تميَّز هذا الطراز المعماري بالزخارف والفسيفساء . وقد اهتمَّ بالعمارة من الخلفاء الأمويين بشكل خاص هشام بن عبد الملك، الذي كان النشاط العمراني في عهده في ذروته .

نظراً إلى ترامي أطراف الدولة الأموية فبطبيعة الحال تفاوتت كثيراً الأنماط والطرازات المعمارية بين أنحائها المختلفة، التي ا عتدات عليها شعوب المناطق المفتوحة حديثاً، وأما «العمارة الأموية» فظهرت في جلها بمنطقة بلاد الشام، مركز الدولة. وقد كانت القصور الأموية التي بنيت في هذه المنطقة فريدة، إذ لا توجد أي دلائل تاريخية أو أثرية على وجود مبانٍ مثلها وبمثل طرازها في الشام قبل الحكم الأموي. وبشكل عام تَعد القصور والمساجد الجامعة الكبيرة أبرز الإنجازات المعمارية في العصر الأموي .

يعد مسجد قبة الصخرة في مدينة القدس) المبني في عهد عبد الملك بن مروان (وجامع بني أمية الكبير في دمشق) المبني في عهد الوليد بن عبد الملك) اثنين من أشهر وأهم الإنجازات المعمارية الأموية على الإطلاق،كما أن من أبرز الإنجازات المعمارية الأموية أيضاً توسعتا المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة المنورة، بالإضافة إلى قصري عمرة) قرب عمان (والمشتى) قربأريحا(، كما أنشؤوا مدناً كثيرة من أبرزها الرصافة في الشام وواسط في العراق وقم في فارس وحلوان في مصر والقيروان في تونس .

الاقتصاد:

ازدهر الاقتصاد في عهد الدولة الأموية ازدهاراً كبيراً نتيجة للفتوحات الإسلامية الكبيرة التي أدَّت إلى توسيع رقعة الدولة ووفرت لها موارد هائلة أغنتها ووفرت لها كل حاجاتها. يوجد عدد محدودٌ من المصادر التاريخية التي تتناول موضوع الاقتصاد الأموي، غير أن مثل هذه الكتب تركّز على الاقتصاد من الناحية الفقهية، وأما المصادر التي تبحث ميزانية الدولة وأحوالها المالية في العصر الأموي فهي معدومة تماماً، ولذلك فإن الوسيلة الأساسية لمعرفة الأحوال الاقتصادية في عصر الدولة الأموية هي في دراسة المستوى المعيشي العام للأفراد مما نقلته كتب التاريخ .

وعموماً فقد كان الاقتصاد الأموي كبيراً ومزدهراً، حيث غذته كثيراً الفتوحات الإسلامية الواسعة، فأصبحت الدولة الأموية مسيطرة على أغلبالطرق التجارية [بالإنجليزية] الأساسية في العالم القديم، وسيطرت من ثَمَّ على الحركة التجارية فيها، فضلاً عن أن ربوعها شملت الكثير من المراكز الزراعية والصناعية الهامة التي أغنت وأثرت اقتصادها، كما أن توسعها أتاح نمو حركة تجارية ضخمة بين ولاياتها بدون عوائق، جعلت نقل البضائع والمتاجرة بها سهلاً ويسيراً، فازدهرت الحركة التجارية في الدولة. إذ شهدت الدولة الأموية حركة تجارية نشطة عبر أنحائها المختلفة الواسعة ومع الدول والإمبراطوريات الأخرى المجاورة على حد سواء.

ولم تقم الدولة أي قيود من أي شكل على كافة أشكال التجارة بين ولايات الدولة نفسها، كما لم تفرض قيوداً أو تقنن بأي شكل التداولات التجارية مع الدول المجاورة، ولم تحتكر أي نوع من البضائع التجارية، وبذلك فإن القوانين التجارية لم تختلف في العهد الأموي كثيراً عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة .

بشكل عام فقد كانت أغلب المبادلات التجارية في العالم القديم تدور بين أراضي الدولتين الأموية والبيزنطية الك بيرتين المتنازعتين، وقد أدَّت القطيعة بينهما نتيجة الحرب إلى شلل كبير في الحركة الاقتصادية خصوصاً في منطقة حوض المتوسط . بلغ الاقتصاد الأموي ذروة ازدهاره في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، حتى أنه يحكى عن عهده أن عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء ليعطوهم المال فلا يجدون. وقد وفّرت الدولة في عهده للأفراد خدمات كثيرة وساعدت على توفير العلاج وإعالة .

المصادر والمراجع

- ابن عذاري, أبو العباس أحمد بن محمد .(1980) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب – الجزء الثاني .دار الثقافة، بيروت.
- ابن حزم, علي .(1987) رسائل ابن حزم الأندلسي – الجزء الأول والثاني .المؤسسة العربية للدراسات والنشر – تحقيق إحسان عباس.
- ابن الأثير .(2008) الكامل في التاريخ .دار التوفيقية للطباعة.
- مؤلف مجهول, تحقيق :إبراهيم الإبياري .(1989) أخبار مجموعة في فتح الأندلس .دار الكتاب المصري، القاهرة – دار الكتاب اللبناني، بيروت.ISBN 977-1876-09-0 .
- السامرائي, خليل إبراهيم وآخرون (2000 .(تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس .دار الكتاب الجديد المتحدة.ISBN 9959-29-015-8 .
- القضاعي, ابن الأبار .(1997) الحلة السيراء .دار المعارف، القاهرة.ISBN 977-02-1451-5 .
- العذري, أحمد بن عمر بن أنس .(-) نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك .منشورات معهد الدراسات الأسلامية في مدريد.
- الشيخ, محمد محمد مرسي (1981 .(دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي 755م–976م (138هـ–366هـ). مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

الفهرس